ألفة الإدلبي

ماوراء الأشياء الجميلة

وقصص أخرى





ماوراء الأشياء الجميلة

وقصص أخرى

لوحة الغلاف للفنّان :

غسّان السّباعي

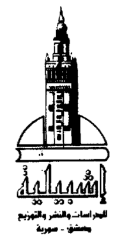
التّنفيذ:
إشبيلية للدّراسات والنّشر والتّوزيع
دمشق ✉ ٤٣٦٣ ، سورية

الإخراج والإشراف الفنّي : **فراس السّباعي**

ألفة الإدلبي

ماوراء الأشياء الجميلة

وقصص أخرى



الطبعة الأولى
شباط (فبراير) ١٩٩٦
إشبيلية للدّراسات والنّشر والتّوزيع
دمشق ، ص.ب ٤٣٦٣

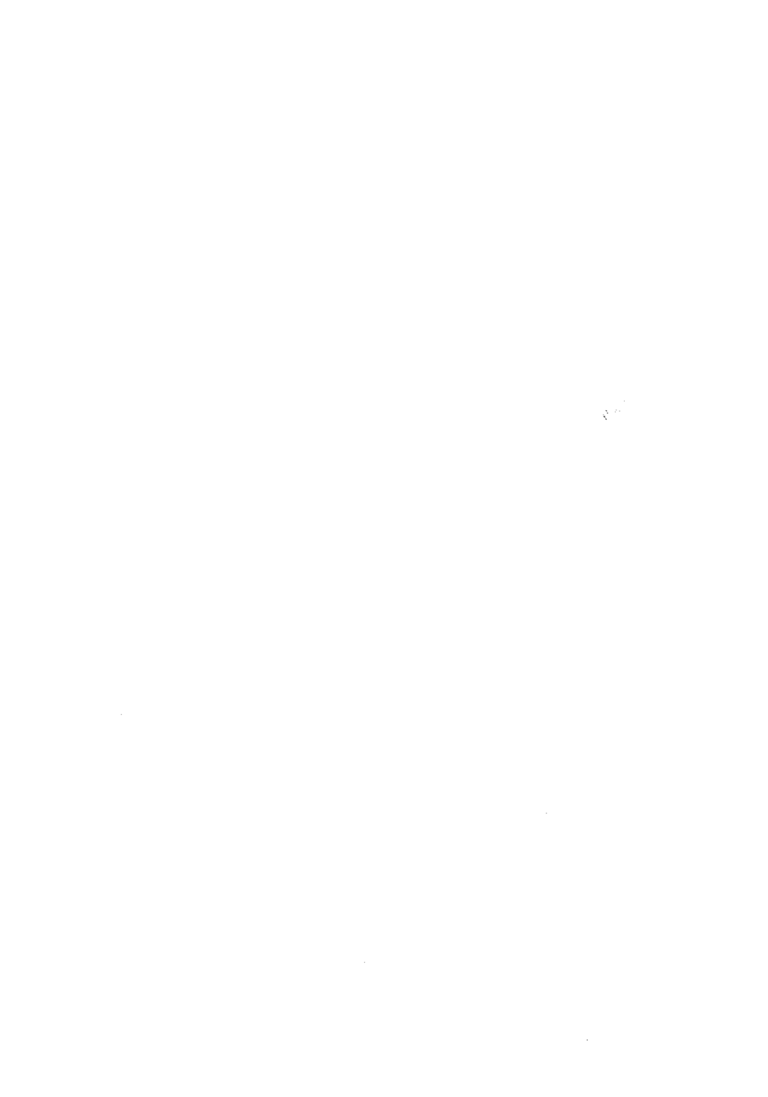


وبه نستعين



ما وراء الأشياء الجميلة

... ثمّ يسود بينهما صمتٌ
كئيب، وكأنهما عادا يفكّران بالمآسي
المروّعة التي تكمن وراء أكثر الأشياء
جمالًا!



ما وراء الأشياء الجميلة

قالت سيّدة الدار لضيفها الأديب الشهير:

ـ كم أنا آسفة لأنّني اضطررت أن أخرج من البيت لأعود مريضًا عزيزًا عليّ.. وقد قدّرت أن أعود من زيارتي تلك قبل موعد مجيئك، فلم يُتَحْ لي ذٰلك، أرجو ألّا تكون قد مللت وسئمت، وأنت تنتظرني.

قالت ذٰلك، وهي تخلع معطفها وتضعه مع حقيبتها علىٰ أريكة إلىٰ جانبها.

قال الضيف:

ـ لا عليك... ثقي أنّني لم أشعر بأيّ ملل أو ضجر، وأنا في صالونك الرائع هٰذا، أسترخي علىٰ أريكة مريحة، وأستمتع

بدفء لذيذ، وأنا أنظر إلىٰ ما حولي من تحف ولوحات انتقيتِها أنت بذوقك الرفيع، ووضعت كلّ واحدة في المكان اللائق بها. وقد خطر لي وأنا أنتظرك، أن أتحدّث إلىٰ هٰذه التحف النفيسة، وأستنطقها، فإذا كلّ واحدةٍ منها تروي لي قصّتها العجيبة الغريبة.

قالت:

ـ ما أحوجني إلىٰ مثل حديثك الحلو الطريف هٰذا، لأُرَفِّهَ عن نفسي قليلًا، لأنّني تعيسةٌ هٰذا المساء وحزينةٌ أكثر ممّا تتصور!

قال:

ـ لم هٰذا الحزن كلّه، وهٰذه التعاسة؟ وقد منّ الله عليك بكلّ أسباب السعادة والهناءة؟

قالت، وقد كادت الدموع تطفر من عينيها:

ـ آه... إنّه بوبي، كلبي العزيز! لقد أصبح عجوزًا، وابتُلي بمرضٍ عضال، فاقترح عليّ طبيبُه أن أُبقيه عنده ليتابع تطوُّر مرضه، وقد ذهبتُ قبل قليل لأعوده وأطمئنّ عليه. فقال لي الطبيب أنْ لا فائدة من علاجه. إن كنت أحبّه حقًّا، وأُشفق

عليه، فيجب أن أوافق علىٰ إعدامه لأُخلِّصه من الألم والعذاب، وقد تعهّد لي أن يُميتَه ميتَةً سريعةً هيّنة، لا عذاب فيها ولا ألم. فٱستمهلتُه قليلًا لأفكّر في الأمر. تصوَّر ما أفظع أن أُوافق، أنا، علىٰ إعدام بوبي، الصديق الأمين الذي لازمني سنين طويلة!...

لم يردَّ عليها، بل راح يتأمّلها مليًّا، وعلىٰ فمه ٱبتسامةٌ ساخرة متهكِّمة!

قالت:

ـ ما لك تنظر إليّ هٰكذا دون أن تنطق بكلمةٍ واحدة؟

قال:

ـ عندما رأيتك قبل قليل تُطلّين عليّ، بهرتني أناقتك، كنت رائعةً حقًّا وأنت ترتدين هٰذا المعطف الثمين المصنوع من جلد النّمر، وتعلّقين علىٰ كتفك هٰذه الحقيبة المصنوعة من جلد التمساح، المحلّاة بقفلٍ من العاج.

قالت:

ـ يالك من إنسان قاسٍ!... أَأُحدّثك أنا عن مأساتي مع بوبي المسكين، فتحدّثني أنت عن أناقتي؟

قال متجاهلًا كلامها:

ـ لا شكّ أنّ معطفك هٰذا قد ٱستهلك جلود أربعة أو خمسة نمور شابّة، يدلّ علىٰ شبابها لمعانُ وبرها وطراوته. والنمر، كما تعلمين يا سيّدتي، فارس الغابة المُجَلّي، كثيرُ التّيه، والعنفوان، والكبرياء، إذا ما سار في الغابة، هادرًا بصوته الأجشّ، تفرّ الحيوانات كلّها من وجهه، وتلتجئ إلىٰ مكامنها، وتروح تسترق إليه النظر بكثير من الإعجاب والخوف والرهبة. فإذا خان الحظّ إحداها، ووقعت فريسةً للنمر، أكل منها كفايته فقط، ثمّ تخلّىٰ عنها للكلاب والضباع، والنسور التي تتابع دائمًا خطاه من أجوائها العالية لتنقضّ علىٰ فُتات مائدته عندما يتنحّىٰ عنها، شأنه دائمًا شأن السيّد الكريم، المتلاف المئناف. وذات مرة، كان أربعة أو خمسة نمور تتبختر مزهوة بجمالها وشبابها، في مكان ما من مجاهل أفريقية، أو أمريكا، أو في غابة من تلك الغابات الهنديّة المترامية الأطراف، عندما خرج، مع بزوغ الفجر، بضعة رجال أشداء أقوياء، قد ضاقت في وجوههم سبل العيش، فٱمتهنوا صيد النمور، تلك المهنة الصعبة الخطرة، ليوفّروا لأنفسهم ولأولادهم لقمة

العيش، حين يُرضون غرور أمثالك من المترفات اللواتي لا يبخلن بالمال الوفير في سبيل الأناقة والجمال.

قالت:

ـ يا لها من قصّة طريفة... يرويها خيالك الجامح!

قال:

ـ أنتظري، لم تسمعي منها بعد إلّا القليل. كان أمهر الصيّادين شابًّا أسمر، فارع الطول، ثاقب النظرات حادّها، متين البنيان، مفتول العضلات، لم تخطئ يده الهدف أبدًا منذ مارس صيد النمور، لٰكن عندما وجّه بندقيته هٰذه المرة نحو النمر الشرس، الذي فُصّل جلده ظهرًا لمعطفك هٰذا (ويشير بيده إلىٰ المعطف المكوّم أمامه علىٰ الأريكة)، خانه الحظّ فأخطأ الهدف فلم يُصب من النمر مقتلًا، فإذا بالنمر الجريح يقفز، بسرعة خاطفة، قفزة واحدة، فإذا هو فوق الصيّاد الشابّ، وفي مثل لمح البصر أنشب أنيابه الحادّة في عنقه، وراحت مخالبه القويّة تَعمل في تمزيق الجسد الفتيّ، قبل أن يعاجل زملاء الصيّاد النمرَ بزخّات من رصاصهم ترديه قتيلا.. أنظري (ويتناول المعطف

ويفرده أمامها) إنّ آثار هٰذه الرصاصات ما تزال ظاهرةً هاهنا وهاهنا، لم يُفلح الرتّاء الماهر في إخفائها تمامًا.

ويخيّل إليها أنها ترى تلك الثقوب المرتّاة، حيث أشار بيده، وفي الواقع قلّما يخلو معطف من أمثالها، فيبدو علىٰ وجهها شيءٌ من الألم.

ويردف الأديب قائلًا:

ـ أَما كان هٰذا الصيّاد المسكين، الذي مات تلك الميتة البشعة، يتمنىٰ، وقد جاء أجلُهُ المحتوم، أن يموت ميتةً هيّنة لا عذاب فيها ولا ألم، كتلك التي يقترحها الطبيب الماهر لكلبك العجوز المدلّل بوبي؟!

قالت:

ـ ما الذي دفع بك لتكرّهني بمعطفي الذي دفعت ثمنه غاليًا؟ يقينًا إني كلّما ارتديته غدًا سأتخيّل الشابَّ منطرحًا تحت النمر، تعمل فيه أنيابه تمزيقًا وتقطيعا.

قال:

ـ ولٰكنّنا لم ننتهِ بعدُ من قصّة معطفك، لأن الخيّاط

الماهر الذي خاطه لم يكتفِ بجلود الأربعة أو الخمسة نمور، فجاء أيضًا بجلود عشرة من حيوانات الفيزون اللطيفة الناعمة، التي كانت تبزّ كلبك بوبي وهو في عزّ شبابه برشاقتها وجمالها، لا سيّما عندما كانت تمرح في الغابة، وتتسلّق الأشجار لتتغازل في ضوء القمر، وقد انتقاها الخيّاط كلّها من اللون البني الداكن، الذي يتلاءم مع لون جلد النمر، ليجعل منها ياقة للمعطف، ويحلّي بها حواشيه ورؤوس أكمامه... فانظري، يا سيّدتي الجميلة الرقيقة، أيّة مجزرةٍ دامية تحملينها على كتفيك البضّتين عندما ترتدين هذا المعطف الفاخر؟

قالت:

ـ إنّ ما يُعزّيني هو أنّ ما تقوله ما هو إلّا خيالٌ في خيال، وإلّا ما معنى أن يكون معطفي بذاته هو الذي سبّب قتل الصيّاد الشابّ؟

قال:

ـ إنّ كلّ ما يمكن حدوثه نستطيع أن نعتبره واقعًا، ثقي أنّ ما وصفتُه لك ما هو إلّا من صميم الواقع، إن لم يحدث

لمعطفك نفسه، فلا بدّ أنّه حدث لآخر وآخر من الاف المعاطف التي ترتديها الحسناوات أمثالك.

ثمّ يلتفت نحو الحقيبة، ويروح يتأملها بإعجاب، رافعًا حاجبيه دهشة.

قالت:

ـ وماذا وراء هٰذه أيضًا؟ هل ستحوك منها مأساةً أخرىٰ، ثمّ تروح تقنعني بحججك الدامغة أنّ التمساح قد ٱفترس صيّاده أيضًا؟

قال:

ـ ليس هٰذا ببعيدٍ عن الواقع أيضًا، ولٰكنّني، وقد وجدتك رقيقة القلب، سأُعفيك هٰذه المرة من مأساة دامية، سأكتفي بأن أصف لك حياة إنسان كادح ٱمتهن صيد التماسيح، لو رأيتِهِ الآن ماثلًا أمامك لاَقشعرّ جلدُك من رؤيته، وهو حافي القدمين، منفوشُ الشعر، عاري الجسم إلّا من خرقةٍ بالية ربطها حول خصره وتدلّت حتّىٰ ركبتيه، بارز العظام من تأثير جوع مزمن، يحمل بيده رمحًا طويلًا، يهيم كالشبح حول شاطئ نهرٍ ما، قد يكون النيل،

أوالكونغو، أوالأمازون، أوأيّ نهر من تلك الأنهار التي تعيش فيها التماسيح، فإذا كلّت رجلاه من التعب، وأنهكه الجوع، ولم يحظَ بالصيد، قعد علىٰ حافة النهر، ثانيًا ركبتيه إلىٰ أعلىٰ متكئًا عليهما بمرفقيه، فيبدو عندئذ وكأنه تمثال نُحِتَ رمزًا للجوع والحرمان، وتظلّ عيناه الزئبقيّتان ترصدان النهر مدىٰ مدّ البصر، ساعاتٍ وساعات، متذرّعًا بصبر غير جميل، فإذا أوشك أن يهبط الظلام قام فحمل رمحه الطويل، وسار نحو كوخه البعيد، يجرّ رجليه بخطىٰ متعثّرة، لا يحمل لزوجه وأولاده سوىٰ خيبة مريرة، وقد يظلّ علىٰ هٰذا المنوال أيامًا وأياما، لأنّ التماسيح قد أصبحت نادرةً بعد أن أمعن الصيّادون في صيدها، لكثرة الرغبة في جلودها الثمينة، حتّىٰ حَرَّمَتْ بعض الدول قتلها خشيةً عليها من الانقراض. وقد يبتسم الحظّ بعد لأْيٍ لصيّادنا المنكوب ابتسامةً ضئيلة، فيسوق إليه تيارُ النهر تمساحًا صغيرًا أرعن كان يسبح قرب الشاطئ، وسرعان ما ينهض الصيّاد الماهر فيشكّه برمحه شكَّةَ أريب متمرّس، فيصيب منه مقتلًا، ثمّ يحمله إلىٰ السوق، حيث يبيعه لتاجرٍ جشع بعد مساومة طويلة بثمن بخس جدًا بعد

هٰذا الجهد الطويل كله. أما مصمّم حقيبتك هٰذه، فقد أراد لها أن تكون أنيقةً جدًّا، فآختار لها قفلًا من عاج لمّاع اتُّخذ من ناب فيلٍ عجوز، كان قد نجا في شبابه من كيد الصيّادين وفخاخهم، فلمّا بلغ من العمر عِتِيًّا، وشعر بدنو أجله راح يسير بخطىً ثقيلة نحو غابة بعيدة، كانت الفِيَلة قد آتخذتها مقبرةً لها، تقصدها عندما تشعر بدنوّ أجلها لتموت فيها مطمئنةً مستسلمة لقدرها المحتوم. وكان ذنب هٰذا الفيل العجوز أنّ له نابين طويلين أغريا به الصيّادين، فحفروا له حفرةً ضيقة علىٰ طريق الغابة، غطّوها بالحشائش الهشّة، والأغصان الطريّة، وسرعان ما وقع فيها الفيل المسكين، عندئذٍ برز له الرجال، وآنهالوا عليه ضربًا بفؤوسهم وطعنًا برماحهم، وهو لا يستطيع حراكًا في الحفرة الضيّقة، حتىٰ مات شرّ ميتة، ولو قُدّر له أن يعلم بمصير كلبك بوبي، لحسده أشدّ الحسد، علىٰ الميتة الحلوة التي سيختارها له طبيبه الحاذق!!

قالت، وقد بدا علىٰ وجهها الجميل شيءٌ من الحزن:

ـ لقد عزّيتَني كثيرًا بالنسبة لبوبي المسكين، ولٰكنك

كرّهتَني بأشيائي الجميلة، حقًّا، ما أفظع مآسي هٰذه الحياة.

قال:

ـ ولعلّ أشدّها فظاعةً تلك المغلّفة بالجمال.. ٱنظري هٰذه السجّادة الكبيرة الرائعة، ألا يخيّل للناظر إليها أنّها حقلُ زهر تفتح أيام الربيع في مدينة شيراز؟! إنّها والله تكاد تُغري النّاظر إليها بأن ينحني ليقطف من أزهارها الغضّة.. ترىٰ كم سنة ظلّت هٰذه السجّادة الكبيرة مشبوحةً علىٰ النَّوْل، تسمع تأفُّفات الضجر، وتصغي لتأوُّهات المرض، وتشهد ٱنتحار الأماني؟!... وقد يكون نُسّاجها أطفالًا صغارًا، أو صبايا يافعاتٍ، شدّهم ذووهم إلىٰ النّول ليعملوا من أجل لقمة العيش، منذ ٱستطاعت أصابعهم الطريّة عقد خيوط الصوف، فما عرفوا مرح الطفولة، أو لهوَ الشباب، وقد لا ينجو منهم إلّا القليل القليل من مرض خطير تحمله إلىٰ رئاتهم الغضّة نِثَاراتُ الصوف حين تستقرّ فيها.

ثمّ ينظر إلىٰ إناءٍ صينيّ مركونٍ في زاويةٍ من الصالون، ويقول:

ـ هٰذه التحفة الصينيّة التي لا تُقدَّر الآن بثمن، ٱنظري كيف رسم الفنّان الصيني بخطين صغيرين فقط ٱبتسامةً معبّرةً عن سخريةٍ عميقةٍ علىٰ وجه عجوز.. لعلّه من أولٰئك الحكماء الصينيّين القدامىٰ، الذين كانوا يجدون سعادتهم بالقناعة بالقليل القليل، ويسخرون من تصاريف القدر في هٰذه الدنيا الخرقاء، الرعناء.. ترىٰ هل ٱستطاع صانع هٰذه التحفة أن يجني، من فنّه الخالد، سوىٰ ثمن حفنات من الأرز لا تسدّ رمقه وعياله إلّا بالكاد؟ ألم يبلغك خبر ذٰلك الرسّام المغمور، الذي باع لوحته النادرة، التي وضع فيها عُصارة روحه، بكأس خمرٍ يُغرق فيها همومه، وبعد مدّةٍ وجيزة بيعت اللوحة النادرة بآلاف الجنيهات؟!...

وينتبه إليها، فإذا هي تُحدّق إليه شاردة الذهن.

قال:

ـ ما لك هٰكذا ساهمة، كأنك لست معي، بماذا تفكّرين، يا تُرىٰ؟

قالت:

ـ بل أفكّر لأنّني معك.. هل تستطيع أن تحزر بماذا أفكّر الآن؟

قال:

ـ ومن غيري يستطيع أن يحزر بما يدور في هٰذا الرأس الصغير الأنيق؟ إنك تتخيّلين نفسك، يا سيّدتي، تتنزّهين منفردةً في دربٍ خالٍ موحش، وفجأةً تشعرين أنّك مطاردة، تلتفتين إلىٰ الوراء.. ويا هول ما ترين!... خمسة نمور شابّة، وفيلًا عجوزًا، وتمساحًا صغيرًا، وصيّادًا شابًّا مصوِّبًا نحوك بندقيّته، ورجلًا منفوشَ الشعر حافي القدمين عاري الجسم شاهرًا نحوك رمحه.. إنّ منظرك، عندئذٍ، سيكون محزنًا جدًّا، ومضحكًا جدًّا!!

قالت:

ـ علىٰ رِسْلك، أرجوك، أنا لا أحبّ أن يحزن عليّ أحد، ولا أن يضحك منّي أحد.. لم هٰذا التهويل كلّه، وأنا لست القاتلة؟

قال:

ـ ولٰكنك أنت المغرية بالقتل، الدافعة إليه، والدافع إلىٰ القتل يُعتبر في الشّرائع كلّها كالقاتل تمامًا.

قالت:

ـ أَوَليس هٰؤلاء، الذين تتصوّرهم يطاردونني، كلُّهم قتلةً أيضًا؟ النمر مثلًا، أليس قاتلًا هو أيضًا؟

قال:

ـ سامحك الله يا سيدتي، ودفع الله الأسواء عنك! النمر يقتُل ليحفظ حياته فقط، ليأكل، أوليدافع عن نفسه، فإذا شبع وأَمِنَ عفّ عن القتل، أما نحن البشر، آفة هٰذا الكون، نقتل لنتباهى، نقتل لنتفاخر ونُتْخم، نقتل ليترفّه بعضنا أكثر من الآخر.. وليس لجشعنا هٰذا، البغيض، حدود، وإذا بحثت عن أسباب أيّة جريمة قتل بين الأفراد أو الجماعات لانتهيت إلىٰ هٰذه الأسباب نفسها.

قالت:

ـ من المؤسف جدًّا أنّ كلامك صحيح لا غبار عليه، ومع ذٰلك كلّه لم تستطع أن تحزر بماذا كنت أفكّر. كنت أتمنىٰ، يا عزيزي، وقد هالني واقع البشر، لو خلقتُ نمرة!

قال:

ـ يا للغرابة! أنا أيضًا لي فكرةٌ مشابهة... عندما رأيتك

ترتدين معطفك هٰذا، قلت في نفسي: لو خلقْت هٰذه الجميلة نمرةً لكان هٰذا الجِلْد أجملَ عليها وآنق ممّا هو الآن.

قالت:

ـ حذارِ أن تتمنّىٰ لو خلقتَ أنت صيّادًا أيضًا! ففي بعض ليالي القَدْر تتحقّق الأمنيات المستحيلة!

وتشير بيدها نحوه مهدِّدة، وقد قلّصت أصابعها ذات الأظافر الحمراء الطويلة كالمخالب.

وراحا يضحكان.

ثمّ يسود بينهما صمتٌ كئيب، وكأنّهما عادا يفكّران بالمآسي المروّعة التي تكمن وراء أكثر الأشياء جمالًا!

الحزن الحميم

كان حزنها لا كالأحزان، صافيًا،
نقيًا، له نكهةٌ حميمة، جعلت لحياتها
التافهة معنًى جديدًا...



الحزن الحميم

ليت هٰذا الليل لا ينقضي أبدًا..

وكانت حزينة!..

ولعلّها أوّل حزينةٍ تتمنّىٰ أن يطول ليلها، لتَفْرغ لحزنها وحده، تعانقه بلهفة، تطوي عليه الجوانح بحنان، ثمّ تمتصّه علىٰ مهل، قطرةً، قطرة.. فيَشيع في كيانها خَدَرٌ لذيذ، ثقيل، كما تدبّ الخمرة في أوصال شاربٍ جديد لم يعتد عليها.

كان حزنها لا كالأحزان، صافيًا، نقيًّا، له نكهةٌ حميمة، جعلت لحياتها التافهة معنًىٰ جديدًا، غيرَ معناها القديم، معناها البليد، الرتيب، الذي لا طعم له، ولا أهميّة...

وكان في حضن الأفق هلالٌ صغير يرمقها من بعيد بحنان، ويبسم لها وادعًا مواسيًا، ويرسل إليها شعاعًا خافتًا يخترق نافذتها برفق ويحطّ علىٰ سريرها، فيبدو جسمها الصغير في الضوء الخافت ممدّدًا بٱسترخاء وٱستسلام، ٱستسلامٍ للحزن. عيناها الواسعتان مفتوحتان، تلتمع فيهما الدموع، وتجري وئيدةً علىٰ خدّيها، ثمّ تتساقط قطرةً قطرة علىٰ الوسادة.

وسادتُها لم تشرب الدمع قبل الآن، ولا تعرف طعمه أبدًا..

من تحت الوسادة كان يُطلّ طرف رسالة تلقّتْها في صباح يومها هٰذا، حملت في طيّاتها بناء هٰذا الحزن الذي ينطوي علىٰ نشوةٍ حلوة لذيذة مفرحة..

هل سمعتم مرة أنّ للحزن نشوةً؟؟

وهل يجتمع الضدّان: الحزن، والفرح؟؟

نعم ـ قالت في نفسها ـ يجتمعان! وإنّ حزني لحميم!

* * *

لقد رأت مرةً قسوةً، وحنانًا، في عيني شابٍّ أسمر من أرض الجزائر. لقد نسيت لون عينيه، وقسمات وجهه، أما نظراته القاسية الحانية فما نسيتها أبدًا. كلّما مرّت ذكراه بخاطرها لم ترَ منه سوىٰ عينين تَشعّ منهما نظراتٌ صارمةٌ وادعةٌ معا، فتنكمش وتتضاءل أمام قسوتهما وصرامتهما، وترتاح وتطمئنّ إلىٰ حنانهما ووداعتهما. كلّ ما به صلةٌ ـ ولو كانت ضئيلةً جدًّا ـ بصاحبها هٰذا، يُذكّرها به؛ إذا رأت، مثلاً، رئيس النادي الذي تنتمي إليه، تذكّرت صاحبها، وتذكّرت كيف ناداها رئيس النادي ذات صباح، وقال لها:

ـ سأَكِلُ إليكِ مهمّةً صغيرة، وستعجبك جدا.. أنت ـ كما أعرف ـ تقدّسين الجزائر، وكلَّ مَن ينتمي إلىٰ الجزائر، سأطلب منك أن ترافقي شابّين جزائريّين في تجوالهما في دمشق، وقد جاءا البارحة من خطوط النار بمهمّة سياسيّة سرّيّة، وسيغادران دمشق اليوم مساءً بالطائرة، وقد أحبّ نادينا أن يُكرّمهما، علىٰ جري عادته في تكريم ذوي الشأن من أبناء العروبة كلّما هبطوا دمشق، ولكنّهما اعتذرا عن هٰذا التكريم خوفًا من أن يشيع

ٱسمُهما، وهٰذا ربما أساء إلىٰ المهمّة التي قَدِما من أجلها، وقد ٱخترتُكِ أنت من بين جميع الأعضاء، لأني أعرف لباقتك وحُسن تصرُّفك وإجادتك اللغة الفرنسيّة، لأنهما لا يتكلّمان العربيّة إلّا بصعوبة، فنرجو أن تكوني أنت دليلهما، وأن ترافقيهما مساءً إلىٰ المطار لتودّعيهما...

وتشكر الرئيس علىٰ ٱختياره لها، وتذهب معه إلىٰ أحد الفنادق حيث يقيمان لتتعرّف عليهما.

كان أحدهما رَبْعَ القامة، هادئًا، يبدو خجولًا، وكان الثاني طويلًا، أسمر، عميق الصوت، في عينيه صلابة جنديٍ مقدام ووداعة طفلٍ بريء.

كيف مضىٰ ذٰلك اليوم؟ لا تدري!..

لكم تحدثت إليهما عن دمشق وكفاحها، وعن الوحدة العربيّة والقوميّة العربيّة! وكم تحدّثا إليها عن أرض البطولات، وعن التضحية والفداء، حيث يراق الدم رخيصًا، وتُبذل الأنفس في سبيل كلّ شبر من أرض الوطن! وكم تلهّفت علىٰ أن تُريق دمها هناك في تلك الأرض العربيّة!

ولن تنسىٰ جلستها معهما، في مقهى المطار، حول مائدة صغيرة، يحتسون القهوة، وينتظرون الطائرة التي تأخّر موعد قيامها ساعة كاملة. كان الطويل الأسمر يلحّ عليها أن تتحدّث بالعربية، ليملأ سمعه من حلاوة ألفاظها، وعذوبة صوتها عندما تنطقها، ويبدي أسفه الشديد وتحرّقه، لأنه لا يستطيع أن يُعبِّر بلغته بطلاقة كطلاقتها هي. وكانت كلما شُغلت عنه قليلًا، وهي تتحدّث إلىٰ رفيقه، ضبطتْه يتفحّصها بنظراته الجريئة من رأسها إلىٰ قدميها، وما أسرع ما يلملم نظراته عنها وينظر أمامه إلىٰ المائدة، وينقر عليها نقراتٍ متتابعة، وهو يقول بتعجب:

ـ دنيا!..

وتشعر هي بشيء حارّ يتمشىٰ في خدّيها لا عهد لها به. وما كانت يومًا خجولًا، فما بالها اليوم تشعر بٱرتباكٍ أمام هٰذا الجزائري الشابّ؟

وتُداري الموقف بأن تسأله:

ـ وماذا تقصد بقولك: دنيا؟!

قال:

ـ أقصد أنها دنيا غريبةٌ عجيبة، كيف يسّرت لنا المجيء من الجزائر الملتهبة إلىٰ دمشق الوادعة؟ وكيف أُتيح لنا أن نتعرّف عليك، أنت بالذات؟

قالت:

ـ وأيّ عجبٍ في أن يجتمع أبناء الوطن الواحد في بقعة من بقاعه الواسعة، وأن يتعرّفوا علىٰ بعضهم بعضًا؟؟

ويجيبها:

ـ لا عجب في ذٰلك أبدًا، ولٰكن هناك شيئًا آخر غريبًا عجيبًا في هٰذه الدنيا، آه لو تدركينه!

قالت متباهلةً:

ـ ألا يمكنك أن تشرحه لي؟

قال:

ـ إنّ شرحه طويل جدًّا، هل تسمحين أن أكتبه لك في رسالة؟

قالت:

ـ سأنتظرها منذ هٰذه اللحظة.

ويقول لها:

ـ وعندما تقرأينها ستقولين: دنيا! كما أقول الآن.

ويضحكان بودٍّ وحرارة.

ويُعلَن عن قيام الطائرة. فيقفان أمامها، ويصافحها صديقه أولًا، ثمّ يصافحها هو، ويضغط يدها، ويقول مرة ثانية وهو يتفرّس في وجهها، بنغمة ممطوطة:

ـ دنيا!

لكم تمنّت ألّا تدع يدَه تفلت من يدها!

ولمّا سار، هو ورفيقه، نحو الطائرة، ثابتَي الخطىٰ، مرفوعَي الرأس، كانت هي تشيّعهما بنظراتٍ والهة، وتشعر أنّ شيئًا ينسلخ عن قلبها.

وتظلّ واقفةً مكانها، تلوّح لهما بمنديلها... حتّىٰ غابت الطائرة عن الأنظار...

* * *

لكم انتظرت الرسالة ...

ولٰكنها لم تأتِ.

مضىٰ شهرٌ شهران، وبدأ اليأس يتسرّب إلىٰ قلبها...

كان التشاؤم يغلب علىٰ طبعها، وقد آستولىٰ عليها منذ صُدمت في مطلع حياتها صدمةً عاطفيّة جعلتها تسيء الظنّ بكلّ شابٍّ يتقرّب إليها فتُقصيه عنها بلباقتها الأصيلة، لأنها تشكّ في صدق عاطفته. وراحت أيّام حياتها تجري هادئةً رتيبة منذ ودّعت مقاعد الدرس لتستقبل منبر التدريس وتصبح مدرّسة، وتكتسب قسماتُ وجهها الحلوة، مع الأيّام، سماتٍ جديّةً تعبّر عن شخصيّةٍ قويّة ذكيّة تثير إعجاب الشباب وتقديرهم، ولٰكنها تقف حاجزًا منيعًا بينها وبينهم، مما جعلها توشك أن تفقد ثقتها بتأثير أُنوثتها بالرجال.

وتجيء الرسالة أخيرًا.

وها هي ذي تُطلّ من تحت وسادتها، وتُشيع الحزن في غرفتها.

لم تأتِ منه هو!

لقد جاءت من صديقه... ينعاه إليها، ويقول لها:

«لقد آستُشهد أمامي، وكان آسمُك آخرَ كلمةٍ نطق بها، وأطبق شفتيه عليها، إلىٰ الأبد..»!!

أَيطبق شفتيه علىٰ آسمها؟ أكانت غاليةً عليه إلىٰ هٰذا الحدّ؟!

ويكاد الحزن يصهر قلبها، وهي في نشوة حلوة.

حياتها التافهة أصبحت ذات معنىٰ عميق لذيذ، ولو أنه ينطوي علىٰ حزن أليم... ولٰكنه حميم.

* * *

وتراودها فكرةٌ، لا تلبث أن تستولي عليها، وتستأثر بها، وتصبح هدفها الذي ترمي إليه:

لمَ لا تذهب إلىٰ هناك، إلىٰ أرض البطولات، لتُجاهد حيث جاهد، وتُريق دمها حيث أراق دمه؟!!



طفلها المدلل

أتحسبني أرغب في طفلٍ إن لم
يكن صورة عنك؟ ستظلّ وحدكَ
طفلي المدلّل!!



طفلها المدلّل

كان الصمت الجاثم علىٰ الدار يُضفي عليها كآبةً ووحشة، فتبدو لعينيه وكأنها معبدٌ مهجور قد تخلّىٰ عنه رُوّاده بعد أن كفروا بدينهم.

ويَهيم بين الحجرات، يُخيَّل إليه أنّ لكلّ قطعةٍ من الأثاث عشراتِ العيون تحملق به عاتبةً، كأنّها تسأله بإلحاح، أين هي سيّدة الدار؟ أينِ هيِ ذات اليدين الطريّتين اللتين كانتا تتعهّدان، بحنانِ أُمٍّ، كلَّ ما تضمّه هٰذه الدار الصغيرة الأنيقة؟

ويصمت، كمذنبٍ أثيم أمام قضاته، وقد تنبّه ضميره، وراح ينهشه الندم. وينتهي به المطاف إلىٰ غرفة النوم، فيدخلها خاشعًا متهيّبًا، يُجيل فيها نظراتٍ حزينة.

علىٰ هٰذا المقعد الصغير، الجاثم أمام المرآة، كانت تجلس زوجُهُ «صفاء» لتتزيّن، كم كانت تلذّ له مراقبتها وهي تُرجِّل شعرها الأسود الكثيف، وتدمدم بأغنيةٍ مرحة، ثمّ ترشّ العطور علىٰ جسدها البضّ، ثمّ تمرّر أحمر الشفاه علىٰ شفتيها الممتلئتين! مِن هٰذا المشجب كان يتدلّىٰ قميص نومها الزاهي إلىٰ جانب منامته، وكان السريران المتلازمان مرتّبين كشأنهما دائمًا!

ويرتمي علىٰ سريرها، بعد أن يُزيح عنه الغطاء، ثمّ يدفن رأسه في وسادتها، يُخيّل إليه أنها لا تزال تحتفظ بشيء من عبقها الفاغم فيستنشقه بنهم!

الآن، حيث لا أحد يراه، يستطيع أن يترك نفسه علىٰ سجيّتها.. يستطيع أن يخلع قناعه المزيّف، قناع القساوة الذي فرضه علىٰ نفسه وقد تعب من حمله، ويبدو حنقه فيبكي كطفل صغير أضاع ذويه في بلد غريب.

كان يحبّ زوجه صفاء حبًّا عنيفًا، كانت وفق ذوقه تمامًا، حتّىٰ كأنه قد صاغها بيديه كما يرغب ويشتهي، وكانت سعادتهما بسيطةً ولٰكنها عميقة.

* * *

ويتذكّر صباحًا شتويًّا، ولمّا يمضِ على زواجهما إلّا سنةً وبعض سنة، كيفَ قالت له وهي تتمطّى في سريرها:

ـ لا أدري لمَ لم أحبل حتّى الآن؟؟.. أكثر صديقاتي اللواتي تزوّجن حين تزوّجت أصبح لديهنّ أطفال إلّا أنا!.. ألا تجد أنه من الضروري أن أعرض نفسي على طبيب متخصّص؟؟

ويلوي شفتيه، ثمّ يقول بلامبالاة:

ـ لمَ تستعجلين مجيء الطفل ولم يمضِ على زواجنا إلّا القليل؟

قالت، وقد شعّت من عينيها ومضاتُ حنونة:

ـ لقد آن أن يكون لنا طفل، له ملامحك الجذّابة.. تصوّر ما أحلاه لو كان بيننا الآن، نُناغيه ويناغينا، ويزحف من سريري إلى سريرك!

ويقاطعها قائلًا:

ـ ولٰكن لا تنسَيْ أنّ الأطفال مزعجون في أكثر الأحيان، وأنا أشدّ الناس انزعاجًا منهم.

قالت:

ـ ما من أحد ينزعج من طفله، ولو كان صاحب مزاج مثلك.

ويضحك، ثمّ يقول لها:

ـ أخشى، إن جاءنا طفلٌ، أن يشغلك عنّي، وأنا غيور كما تعلمين! أريد أن أظلّ وحدي طفلك المدلّل!

وتنسحب من السرير ، وهي تقول مندّدة:

ـ إنّ الرجال أنانيّون دائمًا.. لا تخشَ يا عزيزي، شيئًا، إنّ قلبي يتّسع لك ولعشرة أطفال معك.

ويظلّ في سريره يفكّر، ويقول في نفسه: لو ذهبنا إلى الطبيب، واتضح أنّ صفاء عاقر، فأيّ مصيبة تحلّ بنا؟؟ لا شكّ أنّ سعادتنا ستستحيل تعاسةً. أنا لا يهمّني الأمر كثيرًا، أما هي.. لشدّ ما ترغب في أن تصبح أمًّا.. إنني ألاحظ هذه الرغبة في عينيها كلّما رأيتها تداعب طفلًا، وما أكثر ما تداعب الأطفال: كأنّ عاطفة الأمومة تمور في صدرها لاهفةً، ملحاحة.. وإذا لم تنجب سأضطرّ لأن أتحمّل طول حياتي عبء مداراتها من عقدةٍ نفسيّة لا بدّ أن تصيب كلّ امرأة عاقرا..

ثمّ يجد نفسه يتساءل: لماذا نعتقد أنّ المرأة هي المسؤولة أولًا عن العُقْم؟؟ ويصمّم أن يذهب هو أولًا ويستشير الطبيب دون علمها.

وما يلبث أن يضحك، ويتساءل: أَيمكن أن أكون أنا عقيمًا؟ ليس في الدنيا مستحيل، فلأجربْ إذًا...

* * *

عندما خرج من عيادة الطبيب، كان يشعر كأنّه يتضاءل أمام الناس، رغم قامته الفارهة، ومنكبيه العريضين. إنّ أيّ صعلوكٍ، أيّ قزم من الرجال، يستطيع أن يمنح آمرأته أطفالًا، أمّا هو فعَاجز!.. وتستحيل كلمة عاجز هٰذه إلىٰ خنجر حاد النصل ينغرز في قلبه كلّما ردّدها!..

لا.. لن يدع أحدًا يكتشف سرّه، حتّىٰ صفاء، زوجه الحبيبة، سيتخلّىٰ عنها، لتذهب هٰذه البلهاء، التي تحلم بالأمومة ليل نهار، ولتتحرَّ عن زوج آخر يستطيع أن يمنحها الولد، أمّا هو فعاجزٌ، لا يستطَيع أن يملأ عينيها بعد اليوم..

ولأوّل مرّةٍ يشعر نحوها بكُرْهٍ وموجدة، إنّها الحقيقة المؤلمة، ولٰكنها قَدَرُه الذي لا يستطيع أن يتغلّب عليه، كما أكد له الطبيب.

ولا يشكّ أبدًا بأنّ صفاء إذا علمت بسرّه، ستظلّ تلك الزوجة الوفيّة المخلصة، وستكبتُ أمامه رغبتها بالولد ما ٱستطاعت، وستداريه ما أمكنها، إنّها من عنصر نبيل طيّب، ولٰكنه لا يستطيع أن يتحمّل شيئًا من هٰذا. إنّه يفضّل ألف مرّةٍ أن يُداريها هو، علىٰ أن تُداريه هي.. إنّ كرامته تأبىٰ عليه ذٰلك.

* * *

وبدأ بالتنكُّر لها ليخلق أسبابًا توجب الطلاق.

فراح يسهر كلّ يوم خارج البيت، يقامر، ويسكر، ثمّ يعود مع الفجر ثمِلًا يترنّح، فإذا عاتبته ٱنتهرها بقسوةٍ كان يتكلّفها بادئ الأمر، ثمّ تصبح عادةً مألوفة لديه تزداد مع الأيّام ضراوةً، وكانت صفاء تتحمّل تنكُّر زوجها لها بصبرٍ عجيبٍ غريب، لا تتحمله إلّا كلّ أنثىٰ متفانيةٍ بحبّ رَجُلِها.

ولم يصل إلىٰ ما كان ينشده، كان كلّما ٱزداد عنتًا ازدادت هي صبرًا وٱستكانة.

ويفطن أخيرًا إلىٰ أنْ لا شيء يثير الزوجة كٱمرأةٍ أخرىٰ تحتلّ مكانها، وما أكثر النساء اللواتي يستطعن أن يمنحنه اللذّة دون أن يسألنه الولد.

ويتّخذ لنفسه خليلةً، يتعمّد أن يصطحبها إلىٰ الملاهي والمتنزّهات، جِهارًا أمام الناس، كي يبلغ الخبر زوجته. ولم يعد يأوي إلىٰ داره إلّا قليلًا. كان أهله وخلّانه يعنّفونه فلا يُعير كلامهم أيّة أهميّة.

وينفَدُ صبر صفاء حين يمعن زوجها في غوايته، وتضطّر أن تطالبه بالطلاق مهدّدةً عساه يرعوي، وإذا هو يجيبها إلىٰ طلبها بسرعة أكثر ممّا كانت تنتظر.

لقد نجحت خطّته أخيرًا ووصل إلىٰ ما يريد.

سيقول الناس: مسكينة صفاء! إنّها ٱمرأةٌ رائعة، ولٰكنّ زوجها فظٌّ رديء، وقد طلّقها ظلمًا ربما لأنّها لم تنجب له!

إنّ هٰذا أحبُّ إلىٰ قلبه من أن يقولوا عنه: مسكين له

زوجة رائعة، ولٰكنها تعسة لأنّ زوجها عقيم ولا يستطيع أن يمنحها سعادة الأمومة!

ويمضي علىٰ طلاقهما ستّة شهور، وهو يوهم نفسه أنّه قد ٱنتصر حين ٱستطاع أن يخفي سرّه عن الناس، ولو أنّه دفع الثمن غاليًا.

* * *

وذات ليلة بلغه خبرٌ كاد يميته قهرًا:

صفاء ستتزوّج بعد أيّام برجل من أصدقائه كان يغار منه كلّما رآه يحوم حولها. صفاء، زوجته الرائعة، التي كانت تملأُ هٰذا البيت سعادةً ومرحًا، سيمتلكها رجلٌ غيره!.. ستنسىٰ حبّه، وتنسىٰ، أيضًا، قساوته وشراسته، ولن يصبح شيئًا مذكورًا بالنسبة إليها.

وتنبثق غَيْرته كما تنبثق نارٌ من تحت رماد. ويشعر بالهزيمة كما لم يشعر بها أبدًا.

ولأوّل مرّة يعترف لنفسه بأنّه كان مخطئًا، ولٰكنّ الوقت قد فاته قبل أن يتدارك خطأه، فليبكِ وليتألم كما يشاء له

حظّه العاثر، ويدفن رأسه في وسادتها التي راحت تشرب دموعه بنهمٍ وتشفٍّ.

وإذا هو يرهف السمع حين يتناهىٰ إليه صوتُ صريرِ مفتاحٍ في قفل الباب.

من عساه يكون في منتصف هٰذا الليل؟؟..

ويتذكّر أنّ صفاء ٱحتفظت بمفتاح دارها علىٰ سبيل الذكرىٰ.

ويظلّ سادرًا في مكانه، ينتظر ملهوفًا ويتساءل: أَيمكن أن تقع المعجزة وتعود صفاء؟؟..

وإذا هي تفتح باب غرفة النّوم، وتُطلّ بوجهها المشرق.

كاد الفرح أن يفلجه، فراح يحملق بها ذاهلًا كأنّه لا يصدّق ما ترىٰ عيناه.

وإذا هي تجلس علىٰ حافة السرير، وتقول له:

ـ لقد جازفتُ وعدتُ إليك.. أنا لا أستطيع أن أتصوّر نفسي بين ذراعي رجلٍ آخر! أنت تحبّني.. إنّني أؤمن بذٰلك، ولم أصدّق أبدًا أنّك تكرهني، مهما حاولت أن تثبت

لي ذٰلك.. كأنّ عين حسود أصابتنا، أو ساحرًا لئيمًا فرّق بيننا.

ويرتمي علىٰ قدميها يبلّلهما بدموعه، وفي لحظة الضعف هٰذه يتنازل عن كبريائه، ويقول لها:

ـ تخلّيتُ عنك حين عرفت أنّني لا أستطيع أن أمنحك سعادة الأُمومة!..

وتضمّ رأسه إلىٰ صدرها وهي تقول له:

ـ أَتصدِّق أنّني حزرت ذٰلك قبل أن تقوله لي، ولذا عدت إليك.. يا مجنون! أتحسبني أرغب في طفلٍ إن لم يكن صورةً عنك؟ ستظلّ وحدَكَ طفلي المدلّل!!

كادي

ولٰكنّ الذي أفسد علينا روعة اللحظة الأخيرة صوتُ صرخةٍ مدوّية أرسلتها إحدىٰ الطّالبات من الصّفوف الأخيرة تبعها نشيجٌ مكبوت.



كادي

كنّا ثُلّةً من الأصدقاء اَعتدنا أن نمضي السهرة، كلَّ يوم، في بيت واحد منّا. وما أدري كيف دار الحديث ذات مرّة حتّىٰ اَنتهىٰ إلىٰ معالجة مأساةٍ عتيقة، ما برحت تتكرّر دائمًا أبدًا في كلّ طبقةٍ من طبقات المجتمع، وفي كلّ بلدةٍ من بلدان العالم.. مأساة الفتاة التي يُغرِّر بها عشيقها فتستسلم إليه، وقد أسكرها الهوىٰ، وطوّح بها الحبّ، فلا تصحو من سكرتها إلّا بعد أن تُثمر الخطيئة. وقد يغدر بها الحبيب فيتخلّىٰ عنها، ويتركها وحدها تكافح بلا نصير، بعد أن ينبذها المجتمع ويتنكّر لها الأهل والأصدقاء.

ويحتدم الجدل حول الموضوع الأزليّ، وكيف يجب أن

يكون موقف المجتمع من الضحيّة.. فتروي لنا إحداهنّ الحكاية التالية:

* * *

كنت، أيّام دراستي في باريس، نزيلةَ دار الطالبات الأجنبيّات، تشرف على إدارتها راهباتٌ فرنسيّات، كنّ يسايرن روح العصر الحديث إلى أبعد حدٍّ تسمح به تقاليد الرهبنة. ولعلّ أحلى ما كان في دار الطالبات هذه، هو الجوّ الوديّ السائد بين الجميع على اختلاف أجناسهنّ ومللهنّ. ولا أكون مغاليةً إذا قلت لكم إنه كان بيننا طالباتٌ من جميع الألوان والعروق.

كانت الطالبة «كادي» أحبَّ الطالبات إلى القلوب جميعًا، هي زنجيّةٌ، فاحمة السّواد، ومن بلاد السنغال على ما أذكر، حلوة القسمات، خفيفة الظل، ذات عينين واسعتين مضيئتين، تلمعان كالماستين في عتمة، وأسنانٍ نضيدة ناصعة البياض، تبرق دائمًا بين شفتيها الممتلئتين، فكادي كانت لا تُرى أبدًا، إلّا ضاحكةً أو مبتسمة.

وإن أنسَ لا أنسَ رقصات كادي التي كانت ترقصها لنا في حفلات السَّمَر التي تقيمها الدار بين الحين والآخر.

كانت كادي ترتدي ألبستها الوطنية الزاهية المزركشة فتبدو نصفَ عارية، ويظهر لنا جمال جسمها البديع التكوين، والذي يصلح نموذجًا لرسّام فنّان، ثمّ تُدير كادي أسطوانةً يضجّ منها قرع الطبول، وتبدأ رقصها الجنونيّ.. حتّىٰ ليخيّل إلينا أحيانًا، أننا في مجاهل أفريقيا وقد برزت لنا جنيّة من جنيّات الغاب.

ولعلّكم تجهلون، كما كنت أجهل أنا أيضًا، أنّ اَسم كادي ما هو إلّا تصغير اَسم «خديجة»، كما اَصطلح علىٰ لفظه السنغاليّون. فكادي، إذًا، فتاة مسلمة، وكانت تنتمي إلىٰ أسرةٍ عريقة في بلادها وغنيّةٍ جدًّا.

ولٰكن حدث ما لم نستطع له تفسيرا.. هو هٰذا التغير الذي طرأ علىٰ كادي فأحالها فتاة أخرىٰ لا عهد لنا بها، لقد اَنقلب مرحُها كآبةً، فأصبحت لا تُرىٰ إلّا متجهِّمة الوجه، كليلة العينين، ساهمةً، شاردةً، تُؤْثِرُ العزلة في غرفتها، فلا تُرىٰ بيننا إلّا في مواعيد الطعام. وإذا سألْتُها إحدانا ـ وقد تكون من أعزّ صديقاتها ـ عمّا اَعتراها؟ أجهشت كادي بالبكاء، وتولّت هاربةً دون أن تَحير جوابا!..

وكان من تقاليد دار الطالبات أن تُكَلِّف، بين حين وآخر، أحدَ القسس ليعظ البنات ويهديهنّ إلىٰ سُبُل الفضيلة والرشاد. وكانت الراهبات حريصاتٍ علىٰ أن تحضر الطالبات دون ٱستثناء هٰذه المحاضرات التي يلقيها القسّ. وذات مرة كان موضوع العظة يدور حول هٰؤلاء الفتيات، اللواتي يتبعن أهواءهنّ وهنّ لا يدركنّ أنهن ينسجن مأساتهنّ.

وكان الواعظ قد ٱصطحب معه فيلمًا سينمائيًّا عرضه علينا.. وكانت قصّة الفيلم تدور حول صبيّةٍ ريفيّةٍ يُغرِّر بها رسّامٌ شابّ، كان قد هبط قريتها ليرسم بعض مناظرها، فتهرب معه إلىٰ باريس، حيث يعيشان معًا مدّةً ليست بالقصيرة. وكان الرسّام قد ٱتخذ الفتاة نموذجًا لصوره، ثمّ تثمر الخطيئة، فتطلب منه بإصرار أن يتزوجا .فإذا هو يتنكّر لها، فتخرج عنه محطّمةً يائسة، تهيم في شوارع باريس، وعند المساء ينتهي بها المصير إلىٰ الاَنتحار، فتُلقي بنفسها في نهر السين.

وكان المشهد مؤثّرًا جدًّا، قد أبدعت الممثلة في تمثيله كلّ

الإبداع، ولٰكن الذي أفسد علينا روعة اللحظة الأخيرة صوت صرخةٍ مدوّية أرسلتها إحدىٰ الطالبات من الصفوف الأخيرة تبعها نشيجٌ مكبوت. وقبل أن يضاء النور، تقوم إحدىٰ الراهبات فتأخذ بيد الطالبة الباكية، وتخرجها من الصالة قبل أن يراها أحد.

وٱستطعت أنا أن أتبيّن كادي، وهي تخرج مع الراهبة، فعرفتُها رغم الظلام، فقد دلّني عليها قوامها الفارع.

ويبتدئ الهمس بين الطالبات..

كان واضحًا لدىٰ الجميع، أنّ الفتاة التي صرخت قد تأثّرت بالمشهد تأثُّرًا بليغًا، لأنها مرّت، أوتمرّ، الآن بمأساة كالتي تشاهدها تُمثَّل أمامها علىٰ الشاشة.

بعد الفيلم أويت إلىٰ غرفتي لأنني كنت تعبةً قلقة. ولمّا ٱنتصف الليل وهدأ ضجيج الدار، تناهىٰ إلىٰ سمعي نشيجٌ عميق، قدّرتُ أنه يأتيني من غرفة كادي التي يفصلني عنها جدارٌ رقيق. فقمت من فوري وطرقت بابها، ففتحت لي، ونظرت إليّ بعينين دامعتين، وأخذتني من يدي، وأدخلتني غرفتها، وجلسنا معًا علىٰ حافة سريرها.

شعرتُ أنها آرتاحت لمجيئي، وقبل أن أسألها شيئًا، قالت لي:

ـ ما أجمل مجيئك إليّ في مثل هٰذه الساعة! أنا بحاجة إلىٰ مَن أُفضي إليها بالسرّ الذي يعذّبني، عساك تجدين لي مخرجًا، أو تشجّعينني علىٰ ما أنوي القيام به.

وراحت تبكي بدموع غزيرة، وكنت أهدهدها وأحاول تهدئتها فما أُفلح.

كان سكون الليل، والضوء الخافت في غرفة الطالبة كادي، ولونها الأسود القاتم، ونشيجها المرير، تضفي هٰذه كلّها علينا جوًّا كئيبًا يقبض النفس، وينطبع في الذاكرة فما ينمحي أبدًا..

وبعد أن هدأت كادي قليلًا، راحت تروي لي مأساتها:

* * *

ماتت أمي وأنا طفلةٌ صغيرة.

وكان أبي قاسي القلب حادّ الطبع، تزوّج بعد موت أمي بقليل، وآنصرف لزوجه الشابة. ولم يكن لي سوىٰ أخ

واحد يكبرني بعدة سنوات، فكان يدلّلني، ويعنىٰ بي كثيرًا، فأجد عنده ما فاتني من حنان الأمّ، ورعاية الأب، ولمّا أتمّ دراسته الثانويّة أرسله أبي إلىٰ فرنسا ليدرس الطبّ، فآستولىٰ عليّ حزنٌ شديدٌ لفراقه، وشعرت بوحشةٍ وأنا في بيتي وبين أهلي.

وما لبثت أن وجدتُني منبوذة في بيت أبي..

وبعد سفر أخي بقليل، خطبني شيخٌ غنيٌّ له ثلاث زوجات، ولم يرزق ولدًا، وله من العمر سبعون عامًا، وأنا لم أتجاوز السابعة عشر من عمري. كان الشيخ يمت بصلة القرابة إلىٰ زوجة أبي، فرضيَ أبي أن يزوجني منه. ورفضتُ وتمنّعتُ، ولٰكنه لم يأبه لي أبدًا..

ويُحدَّد موعد القران، فأكتب إلىٰ أخي أستنجد به. ويستنكر أخي الأمر ويستكبره، ويكتب إلىٰ أبي كتابًا عنيفًا يُحذِّره من الوقوع في مثل هٰذا الإثم. ولم يُجْدِ الكتاب نفعًا، بل زاد أبي عنادًا وتمسّكًا برأيه..

وأعاود الكتابة إلىٰ أخي.. فما كان منه إلّا أن كتب إلىٰ صديقٍ له في بلدنا يثق به كثيرًا، وكان الصديق علىٰ أهبة

السفر إلىٰ فرنسا ليتمّ دراسته فيها أيضًا. ورجاه أخي أن يُهرّبني من بيت أبي ويُهيّئ لي جواز سفر، ويصطحبني معه إلىٰ فرنسا.

ويقوم الصديق بما عُهِدَ إليه. خير قيام. وكان هربي قبل موعد حفلة القران بيومٍ واحد.

ونركب الباخرة، ونقضي عليها أيّامًا حلوة، لعلّها أجمل أيّام حياتي. كنت كالعصفور الذي ينطلق من القفص إلىٰ الفضاء الرحب. فكنت لا أكفّ عن الرقص والغناء والضحك. وكان طبيعيًّا جدًّا أن يدهمني الحبّ، بعد كلّ هٰذا الكبت الذي عانيتُه طويلًا. ومَن أَوْلىٰ بحبّي من هٰذا الصديق، الذي أراه إلىٰ جانبي لا يفارقني أبدًا، ينظر إليّ بوَلَهٍ، وقد تطوّع لإنقاذي، وراح يغمرني بحنانه ورعايته. فكان أن اندفعنا في الحبّ، وتعاهدنا علىٰ الزواج.

ونصل فرنسا، ويفرح أخي بمجيئي كثيرًا، وكان يدرس في جامعة «مونبيلييه»، بينما يدرس صديقه في «باريس»، ويقترح الصديق علىٰ أخي أن أدرس في باريس، وأن أسكن دار الطالبات هٰذه. ويقبل أخي الاقتراح، ويصبح من السهل

علينا أن نجتمع، أنا وحبيبي، كلّما حلا لنا ذٰلك، ونلهو كما نشاء ويشاء لنا الهوىٰ...

ومنذ شهرين تبيّن لي أنني حامل، ويتملّكني الذعر، وأذهب إليه مرتاعةً أُخبره بالأمر.. فما كان منه إلّا أن أخذني بين ذراعيه، وراح يُقبّلني، والفرح يغمر أساريره، ويقول لي عاتبًا:

ـ ما كنت أحسب أنك تبكين إذا أثمر حبُّنا.. الأمر أيسر بكثير مما تتوهّمين. سأذهب أنا وأنت، في نهاية الأسبوع، إلىٰ أخيك في مونبيلييه، وأخطبك منه، ثمّ نعلن زواجنا، وأنا علىٰ يقين أنه لن يرفض طلبي أبدًا. وإذا رفض، وهٰذا ما أستبعده كثيرًا، فسنعترف له بكلّ شيءونجعله تجاه أمر واقع..

قلت:

ـ ولٰكني أخاف من أخي!

ويربّت كتفي، ويقول:

ـ أوتخافين، وأنا إلىٰ جانبك؟!

وتتابع كادي، والدموع تنهمر من عينيها:

ـ أرأيتِ؟! إنه لم يغدر بي أبدًا، كان شريفًا، ولٰكنّ الأقدار هي التي غدرت بي.. لقد مات حبيبي قبل نهاية الأسبوع! قبل أن نذهب إلىٰ أخي.. توقّف قلبه فجأة! وكان موته بالسكتة القلبيّة كما أيّد الطبيب.. مَن يُصدِّق أنّ شابًّا قويًّا في عنفوان شبابه، يموت هٰكذا في طرفة عين، دون أيّ سبب؟! وتكبر عليّ المصيبة، فيُنسيني موتُه نفسي، والجنينَ الذي ينمو في أحشائي!.. ولٰكن أول البارحة وردتْني رسالةٌ من أخي، يعترف لي فيها بأنّ أبي كان قد قطع عنّا المال منذ هربتُ إلىٰ فرنسا، انتقامًا منه ومنّي.. وأنّ صديقه الراحل الغالي كان هو الذي يمدّنا بالمال بما يرسله له أهله، وهم أغنياءُ جدًّا، وقد اتفق مع أخي أن يكتما عني هٰذا الأمر كي لا أهتمّ وأتألم. وأصبح أخي الآن لا يستطيع أن يستمرّ في دراسته التي شارفت علىٰ النهاية، فكتب إلىٰ أبي يستعطفه، ويرضىٰ أبي ويعفو عنه شرطَ أن يُعيدني إليه، وهو يَعِدُ بأن لا يتعرّض لأمر زواجي ما لم يوافق أخي عليه، فيجب عليّ إذًا أن أعود.. وكيف أستطيع العودة وأنا حامل؟..

قلت لها:

ـ ليس أمامك سوىٰ أن تتخلّصي من الجنين في أسرع ما يمكن.

قالت مذعورةً:

ـ هٰذه جريمةٌ كبرىٰ لن أُقْدِم عليها أبدًا.. كيف يجوز لي أن أقتل ٱبنه في أحشائي؟! ٱبن مَن أحبّني، وضحّىٰ من أجلي، وثقي أن لا شيء يخفّف عليّ حزني، ويحبّب إليّ الحياة كما إذا ٱستطعت أن ألد هٰذا الجنين، وأكرس حياتي كلها للعناية به..

قلت:

ـ ٱعترفي لأخيك، ربما استطاع أن ينقذك ممّا أنت فيه.

قالت:

ـ ماذا تقولين؟ أمجنونةٌ أنت؟ أعوذ بالله! لا شكّ أنه يقتلني.. وما يُخيفني القتل أبدًا، ولٰكنني أُشفق علىٰ أخي، ويصعب عليّ أن أجرّه إلىٰ مثل هٰذا الإثم، وأن أُسبّب له ألمًا وحزنًا ربما لا يستطيع أن يتخلّص منهما طول حياته، كما لا أريد أن أُخيّب ظنّه في صديقه الذي كان يحبّه، ويثق

فيه، فيحسب أنه كان يدفع له ثمن شرف أخته. لا لا.. لن أفعل ذٰلك أبدًا، معاذ الله..

وتفكّر قليلًا، ثمّ تقول:

ـ لم يبقَ أمامي إلّا حلٌّ واحد.. هو الحلّ الذي ٱنتهت إليه فتاة الفيلم..

ويهولني ما أرىٰ علىٰ وجهها من علائم التصميم والجدّ، ولم أعد أعرف كيف أتصرّف معها، وبماذا أُشير عليها!..

قلت لها:

ـ هٰذه هي الجريمة الكبرىٰ، فإيّاك أن تُقْدِمي عليها، خيرٌ لك أن تعترفي لرئيسة الراهبات وهي، كما تعلمين، طيّبة رحيمة، ربما ٱستطاعت ٱنقاذك بما لم يخطر ببالنا أنا وأنت..

قالت:

ـ سألجأ إليها منذ الصباح..

ولبثتْ هادئةً تفكّر، ثمّ راحت توهمني بأنّ النعاس سيطر

عليها، فعرضتُ عليها أن ننام معًا في سريرها، فلم تقبل، ومانَعتْ بشدّةٍ خوفًا من إزعاجي.

وعدت إلىٰ غرفتي محطّمة النفس، أفكّر بهٰذه المسكينة، وماذا يمكنني أن أفعل من أجلها؟ ولا أدري كيف غلبني النوم، فسهوت قليلًا قُبيل الفجر... وإذا إحدىٰ الطالبات توقظني في الصباح الباكر، وتحمل إليّ الخبر المريع:

ـ اَنتحرت كادي.. بأن ألقت بنفسها من الطابق السادس إلىٰ الأرض.

ويعمّ الحزن الدارَ بأجمعها، كلّ واحدةٍ منّا كانت تشعر أنها هي وحدها قد فقدت كادي..

* * *

وإن أنسَ لا أنسَ أخاها يوم جاء الدار ليأخذ أشياء أخته، وقد تركت له كلمتين فقط: «أخي الحبيب، لقد فضلت الموت علىٰ العودة».

كان المسكين يبكي بلَوْعةٍ، ويقول لنا:

ـ أتعرفْنَ أنني أنا الذي قتلتُ صديقتكنّ كادي؟! قتلتُها،

لأني أجبرتُها على العودة إلى حيث لا تريد!... أنا والله قتلتُها!...

ويخطر ببالي أن أُريح ضمير الرجل، الذي بدا لي أنه يتعذّب كثيرًا، فأبوح إليه بما أعرف من سرّ أخته، وسبب انتحارها..

ولكني لم أجرُؤ أبدًا على مفاتحته..

و هل يجوز لي أن أُفشي سرًّا أؤتمنتُ عليه، وقد فَضَّلَت صاحبتُه الموتَ على إفشائه؟!!

النصر الغالي

... فإذا بيده ضفيرةٌ شقراء،
معقودٌ في نهايتها شريطٌ أزرق
كالفراشة، يقطر من جذور الشعر
دمٌ قانٍ مجبولٌ بالتراب.



النصر الغالي

صرخت أمّ رندة:

ـ أتركي الطابة يا بنتي، يكفينا صوت المدافع والقنابل!

لم تردّ الصغيرة، ظلّت تضرب الطابة على أرض الشرفة ثمّ تردّها بيدها، فيُسمع لها دبدبةٌ رتيبة مزعجة.

زعقت الأمّ بعصبيّة:

ـ أتركي الطابة يا رندة، وإلّا رميتُها إلى الطريق. هاتي المشط، وتعالي لأُسرّح لك شعرك.

أذعنت الصغيرة لتهديد أمّها الذي لم تألفه منها قطّ. رمت الطابة على أرض الشرفة، أسرعت إلى غرفة النوم، عادت بالمشط، نظرت إلى وجه أمّها المتجهّم، ثمّ قالت:

ـ ماما، أنتِ زعلانة؟

ـ لا يا حبيبتي، لٰكن أعصابي تعبة.

ـ ماذا تعني «أعصابي تعبة»؟

ـ تعني أنني لا أستطيع أن أسمع صوت الطابة، أو أي صوت آخر، أفهمت؟

هزّت رندة رأسها، مشيرةً إلىٰ أنها فهمت قول أمّها، ولٰكن بدا في ٱتساع عينيها أنها لم تفهم شيئًا.

ناولت أمُّها المشط، جلست أمامها علىٰ الديوان، أدارت لها ظهرها. حلّت الأمُّ الضفيرة، غرزت المشط في الشعر، سحبته إلىٰ الأسفل، تعثّر المشط قليلًا، صرخت الصغيرة:

ـ أخ!

ولوت عنقها.

رفعت الأمّ المشط، غرزته في مكان آخر، سحبته... راحت تكرّر غرزه وسحبه، حتّىٰ ٱنساب الشعر أمامها شلالًا أشقر كأسلاك الذهب، طريًّا كخيوط الحرير.

نظرت الأمّ إليه بٱعتزاز كبير، وكأنها تناست همومها

لحظات، فراحت تعبث بالشعر الأشقر، تلملمه، تَفْرُده، هي التي ربّت هٰذا الشلال الذهبيّ المتدفّق، وٱعتنت به، حتّىٰ بدا كشعر صبيّةٍ كبيرة لا كشعر طفلة صغيرة لم تتجاوز الخامسة من عمرها، ثمّ فَرَقَتْه إلىٰ ثلاث خُصَل، وضعت بينها شريطةً زرقاء، وراحت تجدُل خُصَل الشعر مع الشريطة، ثمّ تركت أواخره محلولًا، وعقدت الشريطة، فبدت كفراشةٍ زرقاء كبيرة حطّت علىٰ ضفيرة شقراء.

تلفّتت الصغيرة نحو أمّها، فراحت الضفيرة تنوس علىٰ كتفيها بدلال.

قالت لأمّها بصوت ناعم:

ـ ماما، أنت تحبّينني؟

وتتفرّس الأمّ بالوجه الصغير المُكَلْثَم، فيطفح قلبها حنانًا، إنها ٱبنتها الوحيدة التي جاءت بعد عُقْمٍ طويل، وتطبع علىٰ الخدّ قبلةً حنونة، وتقول لها:

ـ أحبّك أكثر إذا سمعتِ كلمتي، قومي الآن إلىٰ غرفة جدّتك وٱطلبي إليها أن تحكي لك حكاية الطير الأخضر الذي يمشي ويتبختر.

قالت الصغيرة بدلال:

ـ اَحكيها أنتِ لي، يا ماما، أنا أحبّ أن أسمعها منك أنت.

قالت الأمّ:

ـ أنا ذاهبة إلىٰ السوق لأشتري لك «شوكولاتة».

قالت رندة:

ـ خذيني معك، أرجوك يا ماما، خذيني معك.

قالت الأمّ:

ـ لا أستطيع، كوني عاقلة واَسمعي كلمتي.

بكت الصغيرة، وراحت تكرّر:

ـ خذيني معك، خذيني معك.

وهي تضرب الأرض بقدمها الصغيرة.

صاحت الجدّة:

ـ مالك، يا رندة؟ مالك يا حبيبتي، تعالي لأحكي لك حكاية حلوة.

اَرتدت الأمُّ معطفها علىٰ عجل، ودخلت غرفة حماتها،

التي كانت لا تزال تُسبِّح في سريرها، انحنت عليها، وهمست في أذنها:

ـ عينك على رندة! أنا ذاهبة إلى المستشفى لأطمئنّ على أخي، فقد جيء به البارحة من الجبهة جريحًا، وجراحه خطرة.

قالت العجوز:

ـ الله يشفيه، ويعينك، ويعين أمّه، هؤلاء الشباب الأبطال، الله يحميهم، لا تتأخري يا بنتي، بعد قليل سيعود زوجك من عمله، وسينشغل باله عليك. نحن في حالة حرب، وفي كلّ ساعة تأتينا من عندهم غارة، إن شاء الله تغور الأرض فيهم.

ضحكت أمّ رندة، وقالت:

ـ لا تخافي، يا امرأة عمي، الغارات التي يشنّونها علينا ما هي إلّا حرب أعصاب، لن يستطيعوا أن يضربوا المدن الآهلة بالسكّان، ستقوم الدنيا عليهم وتقعد، هل الأمور سائبة إلى هذا الحد؟..

همهمت العجوز قائلةً:

ـ هٰؤلاء صهاينة، غدّارون، يا بنتي، هل نسينا ما أصابنا منهم؟.

كانت رندة ما تزال تبكي وتضرب الأرض بقدميها، فلما رأت أمّها خارجة تشبّثت بمعطفها، وظلّت تصرخ:

ـ ماما! خذيني معك، أنا خائفة، خائفة..

خلّصت الأمّ معطفها من يد الصغيرة ودفعتها إلىٰ غرفة جدّتها، وأغلقت باب الدار خلفها، وراحت تهرول علىٰ الدرج. كان صراخ الصغيرة ما يزال يرن في أذنيها، توقفت في منتصف الدرج، وقد راودتها فكرةٌ في أن تعود وتأخذها معها، ولٰكنها تردّدت قليلًا، وقالت في نفسها: بعد قليل ستكفّ عن البكاء، وستداريها جدّتها، ما الفائدة من أخذها؟ ربما لن يسمحوا لها بدخول المستشفىٰ.

تابعت سيرها.

* * *

كان شارع الجلاء هادئًا، إلّا من نسائم خريفيّة تداعب رؤوس أشجاره، وكان الناس يتحدّث بعضهم إلىٰ بعض

بغبطةٍ وفرح، رؤوس أكثرهم مرفوعةٌ نحو السماء، تبحث فيها عن طائرةٍ عدوّةٍ يطاردها صاروخٌ فيُحيلها في لحظاتٍ إلىٰ جمرةٍ حمراء لا تلبث أن تذوب في الفضاء... ما أحلىٰ اللعبة!.. لا سيّما عندما يهبط قائد الطائرة العدوّة بالمظلّة، أهل دمشق كلّهم في الشوارع يُطلّون من الشرفات والشبابيك والأسطحة، يترقّبون اللعبة المثيرة. لا أثر للخوف أو للذعر، حتّىٰ الخائفون أصبحوا شجعانًا! هل الشجاعة عدوىٰ أيضًا؟ أم هي بوادر النصر تفعل الأعاجيب، الفوضويّون ٱنقلبوا نظاميّين! يا لهٰذا السحر، الذي ٱسمه النصر، ما أروعه!..

فجأةً دوىٰ في الجوّ صوتٌ فظيع، تسمّر الناس في أماكنهم، تلا الصوتَ ٱنفجار، تبعه آخر وآخر.

شعرت أمّ رندة أنّ قوّةً هائلة تدفعها نحو مدخل إحدىٰ البنايات وتلصقها بالجدار، لا تدري كم ظلّت فاقدة وعيها، ثمّ راحت تصحو شيئًا فشيئًا، وتنظر حولها فتتداخل الأشياء، وتتشابك أمام ناظريها، جدارٌ من غبارٍ رماديّ داكن ٱنتصب أمامها، لم تعد ترىٰ من خلاله إلّا أشباحًا تتراكض، وترهف

سمعها فتتلقّف أذناها أصواتَ اَستغاثةٍ، وصراخ ملهوف، وأبواق سيّارات الإسعاف من هنا وهناك.

ظلّت لحظاتٍ مذهولةً، ثمّ راحت تتحسس أعضاءها، رأسها، يديها، رجليها... أيمكن أن تكون سليمةً بعد هٰذا كلّه؟ جرّبت أن تقف، فاَنتصبت قامتها بسهولة، إلّا رجفة كانت تهزّ جسدها كلّه.

زعقتْ:

ـ بنتي رندة، رندة!

ثمّ قفزت فوق الأنقاض، وقعت علىٰ الأرض، دخلت شظايا الزجاج في كفّيها وركبتيها، وسال دمها، لم تشعر بالألم، تمالكت نفسها ونهضت، ثمّ وقعت، وعادت فنهضت.

كان الناس، من حولها، يتراكضون من غيرِ هدىٰ، وسيّارات الإسعاف تلملم القتلىٰ والجرحىٰ من الطُّرقات، غبارٌ أسود يحجب بعض البنايات.

ركضت في اَتجاه بيتها، لمحتْه من بعيد، يلفّه غبارٌ أسود، شعرت أنّ قلبها يهبط.

وصلت، وقفت أمامه تلهث، ثمّ اَقتحمت الغبار، دون أن تعي ما تفعل. سحبها أحد رجال الأمن من يدها، وصرخ فيها:

ـ أمجنونة، يا اَمرأة؟

قالت له:

ـ لي هناك اَمرأةٌ عجوز، وطفلةٌ صغيرة.. دعني، أرجوك، دعني.

أفلتت منه، واَقتحمت الغبار، قبض عليها وسحبها مرّةً ثانيةً بعيدًا عن الأنقاض، وهو يقول لها:

ـ ممنوع دخول البنايات المقصوفة إلّا لرجال الإطفاء، والدفاع المدني.

أشفق عليها رجلٌ، فأخذها من رجل الأمن وراح يهدّئ من روعها، قائلًا:

ـ صلّي على النبي، يا أختي، اَنتظري، عساه خير، كثيرًا ما يخرج بعض الناس من تحت الأنقاض سالمين..

لا تدري كيف أُفرغَ عليها الصبر، كأنّ كلام الرجل قد

فتح عليها كوّة أمل، فوقفت إلىٰ جانبه تحملق في الغبار، الذي بدأ يَشِفّ ويشفّ، حتّىٰ ٱنقشع أخيرًا عن كومة أنقاض.

ندَّتْ منها صرخةٌ مروّعة، رفعت كفّيها وخبطتهما علىٰ وجهها، وهي تقول:

ـ لماذا لم آخذها معي؟! لماذا؟! لماذا؟!..

عاد الرجل يهدّئها، فكتمت صراخها، وراحت تعضّ أصابعها، شعرت أنها نشازٌ بين هٰذا المجتمع، وأنّ نظرات ٱستنكارٍ تنهال عليها، الناس أصبحوا غيرهم بالأمس، لا أحد يبكي، لا أحد يصرخ، الجميع يتغلّبون علىٰ عواطفهم بقدرةٍ عجيبة، يواجهون مصائبهم بصمودٍ وشجاعة.

شقّ الزحام رجلٌ مكهرب الوجه، زائغ النظرات، صاح بصوتٍ جهوري:

ـ فداكِ يا شام! أهلي هنا تحت الأنقاض، ليسوا خيرًا من شبابنا الذين يواجهون الموت في الجبهة، النصر غالٍ يا أخوان، النصر غال...

قفز شابٌّ من الدفاع المدني كأنه لمح شيئًا، دسّ يده في كومة تراب ثمّ أخرجها ونفضها... فإذا بيده ضفيرةٌ شقراء، معقودٌ في نهايتها شريطٌ أزرق كالفراشة، يقطر من جذور الشعر دمٌ قانٍ مجبولٌ بالتراب.

اَندفعت أمّ رندة نحو الفتىٰ، وخطفت من يده الضفيرة، قائلةً:

ـ هٰذه لي!

وضمّتها إلىٰ صدرها، وتكوّمت علىٰ الأرض، وهي تكتم نشيجها.

* * *

لقد جفّت الدموع من عيني الأمّ الثكلىٰ، وراحت شفتاها تتمتمان كما سمعت من الرجل المكهرب الوجه:

ـ فداك يا شام! النصر غالٍ! النصر غال!...



الذكرى القاتلة

... تذكّرت ـ وهي تجتاز الجسر
ـ انّ أوّل موعدٍ ضربه لها زوجها كان
في هٰذا المقهىٰ نفسه...



الذكرى القاتلة

كان لا بدّ لها من الذهاب إلىٰ الموعد الذي ضربه لها في ذلك المقهىٰ المنعزل، القائم علىٰ تخوم البلدة الكبيرة، التي كانا يسكنانها .

كانت رسالته إليها مقتضبةً لا تَنِمّ عن شيء، لا عن غضب، ولا عن رضا، أشبهَ ما تكون بتلك الرسائلِ التي يتبادلها الغرباء لأمرٍ ما، داخلها شيء كثير من الارتباك والحيرة، وهي تُعيد قراءة الرسالة، ربما للمرة العاشرة... أتراها دليلًا علىٰ عدم مبالاته بها؟ أم عن حقده العميق، وكبريائه المجروحة؟...

تساءلت: لمَ دعاها إلىٰ المقهىٰ وكأنها امرأةٌ غريبة عنه، ولم

يدعُها إلىٰ البيت ليسوّيا أمورهما بهدوءٍ فينفصلا عن بعضهما بالحسنىٰ، ويظلّا صديقين إكرامًا لابنتيهما الصبيّتين اليافعتين؟ أتراه يعتقد أنّ البيت، الذي ضمّهما خمس عشرة سنة، أصبح محرّمًا عليها، بعد أن هجرت ربّه وفرّت مع ر جل آخر؟

تنهّدتْ بعمق، وودّت من صميمها لو أوتيت من قوة البلاغة، والقدرة علىٰ الإقناع، ما تستطيع بهما أن تصوِّر الأمور كما وقعت تمامًا... عندئذ تستطيع أن تبرِّئ نفسها، بأن تقنعه أن الأمر كان فوق طاقتها، وأنها ليست وحدها المؤاخذة، لقد كان له أيضًا يدٌ كبرىٰ في المأساة التي قوّضت بيتهما السعيد...هو الذي يظنّ نفسه بريئًا لا ذنب له!

أتراه يذكر يوم جاءها ذات مساء، يقول لها أنه تعاقد مع شركة كبيرة ليعمل فيها مهندسًا في بلدٍ ناء، وسيصطحبها معه، بعد أن يُلحِقا ابنتيهما الصبيّتين في مدرسةٍ داخلية، وسيغلقان بيتهما إلىٰ أن يعودا إليه بعد سنوات قلائل وقد أصابا من الثروة والغنىٰ حظًّا كبيرًا.

فوجئت يومئذ بقراره هٰذا، ثارت عليه، أنّبته، كيف يُبرم مثل هٰذا الأمر الخطير دون أن يستشيرها! أليست شريكة حياته؟.. إنّها قانعةً بعيشها، لا تجد جمع الثروات الطائلة سبيلًا إلىٰ السعادة كما يجد هو. كما أنها لا تصبر علىٰ فراق ابنتيهما، إنّها تجد لذّةً كبيرة في رعايتهما ومتعةً لا تعادلها متعة في رفقتهما، كما يشقّ عليها هجر بيتها الأثير عليها وبلدها الذي تحبّ... لٰكنّه لم يأبه لحججها، وأصرّعلىٰ رأيه.

لم تكن تدري أن لا قيمة لرأيها عنده، وأنها تعيش تابعةً له، هي التي كانت تعتزّ بذكائها وقوة شخصيّتها. كتمت ذٰلك كلّه في نفسها وسافرت معه إلىٰ حيث يريد.

كان البلد الذي جاءا إليه، موحشًا، بعيدًا عن المدينة التي أَلِفَتْها. سكنت مع زوجها في فندق أُقيم علىٰ ساحل البحر لأرباب الأعمال الغرباء، قد توفّرت فيه أسباب الراحة. كان زوجها يذهب إلىٰ عمله في منطقةٍ نائية منذ الصباح الباكر. وكانت، في أثناء غيابه، تمارس السباحة التي تهواها، ولم تجد بين نزلاء الفندق مَن تنسجم معه.

كانت تمضي وقتها في السباحة والقراءة، وكتابة الرسائل إلىٰ ٱبنتيها وأصدقائها. ولم تمضِ عليها شهورٌ قلائل، وهي تعيش هٰذه الحياة الرخيّة بين السباحة والاسترخاء علىٰ الرمال تحت أشعة الشمس، حتّىٰ شعرت أن جسمها الممتلئ بدأ ينحل كما كانت تتمنّىٰ وتشتهي وهي في بلدها. وبعد فترةٍ قصيرة بدا قوامها مشيقًا رشيقًا. صارت لا تملّ من النظر إلىٰ المرآة، فهي لم تعرف نفسها ـ حتّىٰ في عزّ صباها ـ أجمل منها الآن. وكم كانت تعتزّ وتطرب عندما يناديها بعض الذين لا يعرفونها بـ «يا آنسة»!

وكم كان يؤسفها أن ليس هنالك مَن يهتمّ بهٰذا الجمال المتفجّر، من يرمقه بنظرة إعجاب، من يُطريه بكلمةٍ حلوة! كانت تشعر أنها كالثمرة الناضجة، إن لم تُقطَف في أوانها وقعت علىٰ الأرض وأصابها التلف. كان زوجها يعود من عمله منهكًا، ما يكاد يأكل حتّىٰ يأوي إلىٰ سريره. وإذا تحدّث إليها تحدّث عن مشاريعه المقبلة، وعن عمله المأخوذ به إلىٰ حدّ الهوس.

* * *

وتمرّ الأيّام رتيبةً متشابهة، حتّىٰ بدأ الضجر يفعل فيها أفاعيله، فتكاد أحيانًا تنفجر ضيقًا وسأمًا...

إلىٰ أن رأته...

رأته يخطر علىٰ الشاطئ، بقوامه الفارع، وبنيانه المتين، ورأسه الشامخ ذي الشعر الأسود الكثيف.

سألت عنه، فقيل لها إنه قائد الطائرة التي تحطّ هنا مرةً كلّ أسبوع، ولا تُقلع إلّا في اليوم التالي.

وكان لا بدّ له أن يتعرّف عليها، فما أقلّ الناس علىٰ ذٰلك الشاطئ المهجور، وما يكاد يتحدّث إليها حديثه الجذّاب حتّىٰ شرنقتْها نظراتُه المشعّة من عينيه، اللتين تكثّفت فيهما زرقةُ البحر الداكنة، كما تُشَرنق العنكبوتُ فريستها.

أحسّت إحساسًا غامضًا أنه لو أشار إليها بطرف بنانه إشارةً خاطفة لتبعتْه إلىٰ آخر الدنيا، ولما فكّرت بزوجها وٱبنتيهما، ولما ٱهتمّت بما يقوله الناس عنها، هي التي عُرفت في مجتمعها بأنها ٱمرأةٌ رصينة متحفّظة. أرادت مخلصةً أن تهرب منه قبل أن يُشير إليها، فقد أدركت، من نظراته التي

كانت تتفحّصها بإمعانٍ وإعجاب، أن لا بدّ له أن يشير إليها يومًا ما، إشارته تلك التي ستُقوّض حياتها...

لجأت إلىٰ زوجها، ترجوه، وتُلحّ عليه أن يسمح لها بالعودة إلىٰ بلدها، فقد اَشتاقت إلىٰ اَبنتيهما ولم تعد تصبر علىٰ فراقهما... وفي الواقع، كانت تريد أن تحتمي بهما من هٰذا الذي جاء يخطفها منهما.

لٰكنّ الزوج اَستنكر طلبها، وندّد بها قائلًا:

ـ هل جننت؟... لم يمضِ علىٰ وجودنا هنا إلّا بضعة شهور! أوتظنّين أنني جئت أعمل هنا ليلَ نهار، لأدفع تكاليف السفر الباهظة كلّما ألحّ عليك الحنين إلىٰ بلدك؟....

توسّلت إليه... بكت، عساها تثير حنانه، لم يأبه لها، أصرّ علىٰ عناده، كشأنه معها دائمًا.

حتّىٰ إذا يئست منه اَستسلمت إلىٰ قدرها، فكان ما توقّعته...

وذات يوم، عاد الزوج من عمله فلم يجدها...

* * *

مضىٰ شهران... عاشت فيهما الحياة ملء إهابها، في ذروة من السعادة، وذروة من الشقاء. هي سعيدةٌ غاية السعادة عندما تكون إلىٰ جانب الرجل الذي أحبّت كما لم تعرف نعماء الحب أبدًا... شقيّة غاية الشقاء عندما تخلو إلىٰ نفسها وتواجه ضميرها...

أعادها الرجل الذي أحبّت إلىٰ بلدها، وسكنا معًا في حيٍّ بعيدٍ عن بيتها، لٰكنّها لم تجرؤ علىٰ الاتّصال بٱبنتيها علىٰ الرغم من شوقها العارم إليهما.

فلمّا تلقّت رسالة زوجها المقتضبة، صمّمت علىٰ موافاته إلىٰ الموعد الذي ضربه لها في المقهىٰ مهما سبّب لها لقاؤه من مشقّة وحرج، عساها تستطيع أن تتّفق معه علىٰ الانفصال بالتّراضي، فتعود إلىٰ رؤية ٱبنتيها الغاليتين عليها.

وكان المقهىٰ الذي قصدته قائمًا علىٰ ضفة نهر غزير، تذكّرت ـ وهي تجتاز الجسر ـ أن أوّل موعدٍ ضربه لها زوجها كان في هٰذا المقهىٰ نفسه، ولٰكنّها نسيت ٱسمه، لم تذكره إلّا وهي تجتاز الجسر.

وقفت لحظة وهي تستعيد الذكرىٰ: كيف خرجا من

المقهىٰ قبل خمس عشرة سنة، وسارا علىٰ الجسر وقد تأبّط كلّ منهما ذراع الآخر،حبيبين صغيرين وكأنهما يطيران من فرط سعادتهما. بعد أن أجتازا الجسر سارا علىٰ حافة النهر، وتذكُر كيف أوقفها أمام فجوةٍ من النهر كأنها بحيرةً صغيرة ثمّ ينعطف بعدها النهر عطفةً كبيرة لها منظر رائع. قال لها: أتدرين لو رفضتِ حبّي ما كنتُ فاعلًا بك؟

قالت: وما عساك تستطيع أن تفعل؟

قال: كنت مصمّمًا أن أقودك إلىٰ هٰذا الدوّار ـ وأشار إلىٰ العطفة التي لا ينجو منها أمهر السبّاحين ـ ثمّ أقذف بك وبنفسي إلىٰ الأعماق، حيث ستكونين لي إلىٰ الأبد.

فضحكت يومئذ معتزّةً بحبّه لها وقالت بدلال: أوتفعلها يا مجنون؟؟؟ سبحان من نجّاني منك إذًا...

وتذكر كيف شدّ جسدها اللدن إليه، وطبع علىٰ فمها أول قبلة.

تسمّرت قدماها علىٰ الجسر، وهي تستعيد الذكرىٰ، فلم تعد تستطيع أن تخطو عليه خطوةً واحدة.

ذات يوم سارت علىٰ هٰذا الجسر، وهي تحسب نفسها أسعد إنسانة علىٰ الأرض... وها هي ذي الآن تقف عليه مسمّرةً، وهي موقنةٌ أنها أتعس مخلوقة علىٰ الأرض. والرجلُ الذي تحّب... إلىٰ متىٰ تستمرّ علاقتها به؟

ذات مرّة طلبت منه أن يتزوّجا بعد طلاقهما، فسخر منها وقال: أَوَهربتُ من زوجتي، وهَرَبْتِ أنتِ من زوجك، لنُعيد الغلطة نفسها؟

شعرت بعدئذٍ أنّ شيئًا من الفتور راح يدبّ بينهما، لأوّل مرة، منذ عرفته، وتنقشع أمامها غيمةٌ عن الواقع فتواجهه دون تمويه أو خداع.

رأت حياتها قد أصبحت عذابًا في عذاب، قرفت من نفسها، اعترتْها دوخةٌ مفاجئةٌ، اشتدّ وجيف قلبها، وامتلأت عيناها بالدموع، فرأت الأشياء حولها من خلال غشاوة تهتزّ وتهتزّ حتّىٰ تختلط ببعضها...

وقعتْ في حيرة: أَتذهب إلىٰ المقهىٰ؟ أم تعود من حيث أتت؟

مضىٰ علىٰ الموعد بضع دقائق، وهو لا شكّ ينتظرها الآن، ربما في نفس المكان حيث كانا يجلسان، لم تعد لديها القدرة علىٰ مواجهته، علىٰ النظر إلىٰ عينيه العاتبتين.

أدارت ظهرها إلىٰ باب المقهىٰ، وبصعوبةٍ بالغة راحت تقتلع خطواتها عن الأرض، كأنها قد شاخت مرةً واحدة.

قطعت الجسر، أنعطفت إلىٰ اليمين، سارت مترنّحةً علىٰ حافة النهر، وقفت أمام الفجوة.

لم تفكر طويلًا...

بهدوءٍ متناه، وبلا تردّد ألقت بنفسها في الدوّار، الذي لا ينجو منه أمهرُ السبّاحين...

وفي لحظةٍ خاطفة... تمّ كلّ شيء...

إنها أختي

إنها خطيئة أهلها بمن فيهم
أنا!.. سأظلّ أبكيها دائمًا أبدًا، مهما
كان شأنها معي.. إنها أختي!..



إنها أختي

خرجت إلى الشرفة، وراحت تراقب بهلع سيّارة المستشفى البيضاء الرابضة أمام بيتها، وقد خُيِّل إليها أنها نعشٌ بغيضٌ يثير القشعريرة في البدن.

كانت ترقأ دموعها الغزيرة بصمت، وكان الحزن يكسو ملامحها الوديعة فيزيدها شحوبًا. وتستعيد بذاكرتها ما قاله لها الطبيب قبل قليل، كأنّها تريد أن تبرِّئ نفسها أمام ضميرها من ذنبٍ يخيَّل إليها أنّها اقترفته بحقّ أختها.

ـ لا يجوز قطعًا أن يعيش أيّ إنسان مع مجنونةٍ في بيتٍ واحد مدى حياته. لقد أصبح الأمل ضعيفًا جدًّا في شفاء أختك!.. ولاأدري لم يثير مرآك، أنتِ بالذات،

جنونَها، فيُسبّب لها اضطرابًا مزعجًا، في مثل هٰذا الحال يصبح المستشفىٰ خيرًا من البيت، هٰذه مشيئة الله، وأنا ناصح لك.

وتقول له باكية:

ـ أرجوك يا دكتور أن ترأف بها، أن تطوّل بالك عليها، إنها ترفض الخروج من غرفتها، يا إلٰهي كيف ستخرجونها غصبًا عنها؟!..

ويقول لها:

ـ ادخلي غرفتك واطمئنّي، سأتدبّر الأمر أنا وزوجك.

وتمتثل لأمر الطبيب حين تجد نفسها عاجزةً عن أيّ تدبير، ولٰكنّها لا تستطيع القعود أبدًا. كان دمها يغلي ويفور.

وتخرج إلىٰ الشرفة، تريد أن ترىٰ أختها الحبيبة وهي تبرح البيت إلىٰ غير رجعة. وتسمع صرير الباب وهو يُفتح، فيخفق قلبها، وتلمح جسد أختها الواهي النحيل بين زوجها والطبيب، يحاول التملّص، وهما يدفعانها، بشيء من العنف، إلىٰ سيّارة المستشفىٰ، وكان شعرها منفوشًا،

ووجهها مكهربًا، وعيناها تائهتين شاردتين، وشفتاها مزمومتين، كأنها تَصُرُّ بأسنانها.

ولم تستطع الأخت الهالعة أن تكبت نفسها، فصرخت بصوتٍ مخنوق:

ـ الآن ماتت سامية! ماتت أختي! ما الفرق بين الموت والعيش في مستشفىٰ مجانين مدىٰ العمر؟؟

وعادت إلىٰ غرفتها، وتهالكت علىٰ سريرها وهي تجهش بالبكاء.

* * *

بعد ساعاتٍ قليلة عاد زوجها، وجلس إلىٰ جانبها، وراح يطمئنها ويواسيها، فيقول لها:

ـ لقد تمّ كلّ شيء بيسرٍ أكثر ممّا كنّا ننتظر.. ويبدو أنّ أختك قد أرتاحت في المستشفىٰ أكثر من بيتنا هٰذا.

فلم تردّ عليه، وبدت له وكأنها لم تستوعب قوله.

فقال لها حانقًا وبلهجة عاتبة:

ـ أما كفانا ما عانينا من جنون أختك؟ أمّا أنت، لو أُبقيت علىٰ حالتك هٰذه للحقتِ بها عن قريب!..

وتكفّ عن البكاء، وتصمت قليلًا تستعيد هدوءها، ثمّ تقول:

ـ لا أُنكر أبدًا أنّ وجود أختي بيننا قد سبّب لكَ إزعاجًا قد لا يحتمله أقرب الأقرباء. وقد اَحتملتَه أنت، الصهر الغريب، سنتين كاملتين، فأنا أشكرك علىٰ هٰذه التضحية التي بذلتَها من أجلي. ولٰكنْ لا بدّ الآن أن أعترف لك، عساي أُهوِّن عليك الأمر، أنّك كنت السبب في جنون أختي، الذي أودىٰ بها وهي في عزّ شبابها!

ويحملق بها بعينين دهشتين، ثمّ يصرخ قائلًا:

ـ أنا؟!.. ماذا تقولين؟!.. أَجننتِ أنتِ أيضًا؟

وتردّ عليه متحدّيةً:

ـ نعم، أنت!.. ولا بأس في أن يُكَفِّر الإنسان، عن ذنب اَقترفه، بشيءٍ من التضحية.

قال متعجّبًا متهكّمًا:

ـ ما أغباني!.. وكيف لم أكتشف ذٰلك حتّىٰ تكرَّمتِ أنتِ وصرَّحتِ به؟ أرجو أن تشرحي لي الأمر شرحًا وافيًا، فلم يخطر لي أبدًا أنّني سأُتّهم بما أُتّهمتُ به الآن.

قالت:

ـ يعود ذٰلك إلىٰ يوم خطبتنا.

قال:

ـ إلىٰ أمدٍ بعيدٍ إذًا!! إلىٰ عشر سنين تقريبًا، وأنت تكتمين عنّي هٰذا الأمر الخطير؟! ما أدهاك!.

قالت:

ـ ما كنت أحسب أنّ الأمر سيتطوّر إلىٰ هٰذا الحدّ من الخطورة. وعلىٰ كلّ حال، لم يكن بيدي حيلة لأتلافىٰ المأساة. أنت تعرف أنّ سامية تصغرني بسنتين، وكانت كما تعلم رائعةَ الجمال، ما كادت تبلغ الخامسة عشرة من عمرها حتّىٰ بدأ الخاطبون يتوافدون علىٰ دارنا من أجلها. وأدركت أسرتنا، وأعني أبي وأمي وأنا أيضًا، أنّ لدينا كنزًا ثمينًا يجب ألّا نفرّط به إلّا بعد روّيةٍ وتفكير. وأحشر نفسي مع أبي وأمي، أو بالأحرىٰ كانا يحشرانني بينهما، لأنّهما

كانا ينظران إليّ وكأنّني أكبر من عمري، بينما كانت أختي علىٰ العكس مني تمامًا، مرحةً لعوبًا، تبدو دائمًا صغيرةً في حاجة إلىٰ رعايةٍ ودلال. وكنت أحذو حذو والديّ، فأرعاها أنا أيضًا، وكان شعوري نحوها كشعور أمٍّ نحو ٱبنتها لا كشعور أختٍ نحو أختها الصغرىٰ. ولٰكن علىٰ مرّ الأيّام طغت شخصيّتها عليّ حتّىٰ أصبحتُ بالنسبة إليها مجرد إنسانةٍ خُلِقتْ لتُعنىٰ بتدبير البيت وتوفير الراحة لسكّانه، وإني الآن لأعجب من نفسي أشدّ العجب كيف تقبّلتُ هٰذا الواقع بكثيرٍ من الرضىٰ والقناعة. فما شعرتُ يومًا نحوها بشيء من الغَيْرة أو الحسد، بل كنتُ فخورًا بأختي، أرىٰ من الطبيعي أن تتزوّج قبلي، هي التي خصّها الله بجمالٍ فريد، فإذا تزوّجتْ ربما وُجد من يهتمّ بي، ويخطبني، لأنّ وجودها قربي يصرف ٱهتمام الناس عنّي، وأيقنت أمّي أنّ جمال ٱبنتها الصغرىٰ لن تسطع شهرتُه، ويَبْعُدَ صيتُه، إلّا إذا برزت أختي في المجتمع الراقي، فأرسلتها إلىٰ أرقىٰ المدارس، وكستها أفخر الثياب، وراحت تتصيّد الفرص لتصطحبها إلىٰ الحفلات، وكان هٰذا التدبير يتطلب مالًا وافرًا لا تفي به مواردنا الضئيلة،

فلجأت أمّي إلىٰ التقتير ما وسعها التقتير، فكان من جرّاء ذٰلك أن آستغنينا عن الخادم، وآنقطعتُ أنا عن المدرسة لأساعد أمّي في خدمة البيت. ولٰكنّ أمّي تخرج كلّ يوم، مع أختي، لعقد الصداقات وردّ الزيارات، أو آرتياد الأسواق والحفلات، أما أنا فأبقىٰ في البيت وأدبّره وحدي. وكان لا بدّ أن يؤثّر نمط هٰذه الحياة في كلتينا، فيجعل من أختي فتاةً متعجرفةً، مغرورةً، طموحًا، ترىٰ كأنّه واجبٌ علينا جميعًا أن نخدمها وننفّذ مآربها مهما كانت صعبةَ التنفيذ، ويجعل منّي فتاةً مستكينةً، قنوعًا، ضعيفة الشخصيّة، لا تتبرّم، ولا تثور أبدًا علىٰ واقعها المرّ. وتظهر أنت علىٰ مسرح حياتنا، حين تشتري العمارة الضخمة المتاخمة لبيتنا، وتسكن منها الطابق المشرف علىٰ بيتنا المتواضع، ونسمع الكثير عن ثروتك الطائلة، ومكانتك المرموقة، ويبهرنا شبابك ووسامتك ونعرف أنّك أعزب، ووحيد أمّك، فَنُعْجَب بكلّ مزاياك، نُمنّي النفس بأن تصبح يومًا صهرًا لنا نعتزّ بك، فليس أنسب من فتاتنا الجميلة زوجةً لك! أما أنا فما كانت لتطولك أحلامي، فما جرّبتُ أن أفكر فيك ولو بيني وبين نفسي.

قال:

ـ يحقّ لي أن أحتجّ!

فٱبتسمتْ، وتابعتْ حديثها قائلة:

ـ وذهبت أمّي وأختي إلىٰ زيارة أمّك، وتعقدان معها صداقةً كما هي العادة مع الجيران الجُدُد، وسرعان ما نصبح أصدقاء ونتبادل الزيارات من حينٍ لآخر، ونحاول دائمًا أن نُظْهِر فتاتنا بأحسن مظهر كي تفوز بإعجابك دون غيرها من الفتيات الحائمات حولك، وتصبح أنتَ مدار حياتنا دائمًا. وتمضي سنةٌ كاملة، دون أن نلمس أيّ محاولة منك للزواج، وكانت أمّي تُنَوِّه لأمّك بذٰلك كلّه فلا تفوز منها بطائل. أما أنا فكنت ألاحظ أنك تُراقب بيتنا أحيانًا، ولا سيّما عندما أكون وحدي أقوم بخدمة البيت، أو عندما أنتهي من عملي وأجلس علىٰ الشرفة أقرأ في كتاب، أو أنسج شيئًا من الصوف، ورحت أتساءل فيما بيني وبين نفسي: ما معنىٰ مراقبته لي عندما أكون وحدي؟ تُرىٰ هل أُثير ٱهتمامه؟ هل يُعجَب بي أنا دون أختي؟! وما ألبث أن أطرد هٰذه الفكرة من رأسي،

وأتّهم نفسي بالسخف، وأقول: ما هٰذا الذي أراه إلّا مجرد صدفة عابرة، مَن ينظر إليّ ويَدَعُ أختي؟

ويضحك زوجها وهو يضغط يدها بحنان، ويقول:

ـ أَلِهٰذا الحد أفقدتْك أختُك الثقةَ بنفسك؟ إنك تثيرين شفقتي.. هٰذه لا شكّ جريمة والديك. إنّني ما زلت أذكر كيف ظللت أراقبكما، أنت وأختك، سنةً كاملة، ثمّ تبيّن لي أنك أنت الزوجة الصالحة التي توافق طبعي، ويهفو إليها قلبي، حتّىٰ لمّا فاتحتُ أمّي بما عزمتُ عليه أقرّتْني علىٰ رأيي، وأثنت عليك كثيرًا.

قالت له:

ـ لن أنسىٰ لكما هٰذا الصنيع. منذ بعثتَ أمّك لتخطبني أعدتَ إلىٰ نفسي الثقة التي كنتُ فقدتها منذ أمدٍ بعيد. وكانت مفاجأةً أذهلت أسرتنا، ثمّ صحونا علىٰ فرحةٍ عمّتنا جميعًا، ما عدا أختي، فقد بدا عليها الآمتعاض، وكأنّها رأت في آختيارك لي من دونها صدمةً جرحت كبرياءها، وراحت أمّي تداريها، وتؤكّد لها أنْ لا بدّ أن يخطبها من هو خيرٌ منك لأنّها أجمل منّي، ولٰكنّها لم تقنع أبدًا، وبدأت تتعقّد نفسها ويسوء

خلقها، وعانينا الكثير من غَيْرتها وتمرُّدها لا سيّما أثناء إعداد الجهاز. والغريب في أمري أنّني كنت أشعر وكأنّني مذنبةٌ في حقّها، أوكأنّني سلبتُها حقًّا من حقوقها، فرحتُ أُمعن في مداراتها لأكفّر عن ذنبي، وراحت هي تُمعن في إيذائي. ولاحظ والدانا ذٰلك، فراحا يؤنّبانها علىٰ سوء تصرّفها نحوي، ويشعران بفداحة غلطتهما حين أسرفا في تدليلها حتّىٰ أفسداها، ولٰكن ما الفائدة وقد جاء هٰذا الشعور بعد فوات الأوان؟ ولمّا تمّ عرسنا، وبقيَتْ وحدها مع أمي وأبي، راحت تفتنّ في إزعاجهما، وكانا يحاران في إرضائها. وكانت كلّما خطبها خاطب قاسته إليك، فإذا رأته دونك ردّته عنها مهما كانت مزاياه طيّبة. ولم ينجح أحدٌ في إقناعها بالزواج لمن هو دونك، ومن سوء حظّها لم يخطبها من هو خيرٌ منك.

قال:

ـ الآن وَضُحَ سبب جفائها لي.. كنت أشعر أنّها تكرهني، ولا أستطيع تعليل ذٰلك.

قالت:

ـ بل علىٰ العكس، كانت تحبّك كثيرًا، وتُعجَب بك،

ولٰكن هٰذا الحبّ والإعجاب اَنقلبا إلىٰ مقتٍ وكره عندما فضّلتني عليها. وبعد زواجنا ببضع سنوات مات أبي، وبعد قليل لحقت به أمّي، وفي يقيني أنّها ماتت كمدًا علىٰ اَبنتها المفضّلة، حين رأت جسمها ينحل، وجمالها يذوي قبل أوانه.. أمّا أنا، فقد ركبني همٌّ كبيرٌ من أجل أختي، كان قلبي يتفطّر عليها أسىٰ كلّما رأيتها بألبسة الحداد السوداء، وحيدةً في البيت، تذوب يومًا فيومًا، وكأنها قد كبرت عن عمرها سنوات عديدة! كم كنت أحبّ أن أفتح لها قلبي، وأن أكون لها، كما كنت دائمًا، ملاذًا وملجأً، وأن أسكّنها في بيتي فلا تقاسي مرارة الوحدة!.. كان لي أملٌ في أن يعود جمالها وتألّقها فيما إذا صَفَتْ نفسها، وهدأت أعصابها الثائرة دائمًا، وربما تجد عندئذٍ الزوج الذي يُرضي غرورها، فما زالت في عزّ شبابها.. أمّا هي فكانت تشتطّ في مناكدتي، وتعمل دائمًا عكس نصائحي، وكأنني غريمةٌ لها، وتظلّ علىٰ عنادها هٰذا، حتّىٰ شعرنا ذات يوم أن عقلها بدأ يختلّ، وعَزَونا ذٰلك إلىٰ فشلها في الحياة، إلىٰ اَنهيار أحلامها، ثمّ إلىٰ اَنطوائها علىٰ نفسها دون أن تخرج من البيت كما تَقضي بذٰلك تقاليد الحزن في بلادنا.. واَرتأيتَ أنت أن تأتي إلىٰ بيتنا عساها تجد بعض السلوىٰ، ولٰكنّها عارضتْ

ومانعت كثيرًا كما هي عادتها، ثمّ أذعنتْ أخيرًا تحت تأثير نُصح الأهل والأصدقاء الذين وجدوا في وجودها بيننا حلًّا مناسبًا لمشكلتها. وكانت غلطةٌ كبرىٰ تلك التي آرتكبناها دون أن نشعر إلّا بعد أن آستفحل الأمر، وراحت حالها تسير من سيِّئٍ إلىٰ أسوأ.. كأنّ مرآنا معًا، أنا وأنت، يحرّك شجونها ويثير غَيْرتها المكبوتة. فكانت أحيانًا تنزوي في غرفتها، لا تخرج منها أبدًا، أو تُضرِب عن الكلام، فلا تنفرج شفتاها عن كلمةٍ واحدة، وآنتهىٰ بها الأمر، كما تعلم، إلىٰ جنونٍ عنيف، وظللنا نأمل أن تشفىٰ، وآتّفقنا أن نكتم خبر جنونها عن كلّ الناس، لكي لا يصبح وصمةً عليها يحول دون زواجها فيما إذا شفيت منه تمامًا.. وآنقطعتُ أنا إلىٰ مداراتها وتمريضها بكلّ ما عندي من عطفٍ وحنانٍ وتفانٍ. وتبيّن لي أنها كانت، علىٰ الرغم من جنونها، تكبت نفسها أمامك، فإذا خرجتَ من البيت آنقلب كبتها إلىٰ ثورةٍ عنيفة، فكانت أحيانًا تهجم عليّ وتضربني بكلّ ما لديها من قوّة... أَتصدّق إذا قلت لك إنني كنت أقف أمامها ساكنةً أتلقّىٰ ضرباتها بصبر عجيب، وأنا أقول في نفسي: لعلّها إذا ضربتني تشفي غليلها منّي، فتهدأ ثورتها قليلًا وترتاح أعصابها؟ فإذا فرغت من ضربي كنت أنصرف من

أمامها محطّمة الجسم، كسيرة القلب، حيرىٰ، لا أدري كيف أتدبر أمري معها! وكنتَ أنت تشاركني همّي.. إلىٰ أن قطع الأطباء كلَّ أمل في شفائها، وانتهىٰ بها الأمر إلىٰ مستشفىٰ المجانين حتّىٰ يوافيها أجلها...

ويختنق صوتها بالبكاء، وهي تقول:

ـ أنا سبب شقائها! أنا أحبّها وأحنو عليها، ولا أدري لِمَ جعلني الله سبحانه وتعالىٰ سبب شقائها!!..

ويحيطها زوجها بذراعيه، ويقول لها بحنان:

ـ ما أطيبَ قلبَك، يا حبيبتي! أتبكين؟ أتبكين علىٰ تلك التي جنّت حسدًا منك؟؟

وتجيبه، ودموعها تنهمر:

ـ ليست خطيئتها وحدها، إنّها خطيئة أهلها بمن فيهم أنا!.. سأظلّ أبكيها دائمًا أبدًا، مهما كان شأنها معي.. إنها أختي!..

فهرسة صغيرة

١ ـ الحزن الحميم:

نُشرت في مجلّة «هنا دمشق»، العدد ٢١٢، أوّل أيّار ١٩٦٢.

٢ ـ كاظمي:

مجلّة «العربي»، الكويت، العدد ٤٥، أغسطس ١٩٦٢.

٣ ـ طفلها المدلّل:

مجلّة «الرائد العربي»، الكويت، يناير ١٩٦٤.

٤ ـ إنها أختي:

مجلّة «الموظّف»، الكويت، العدد ١٣، مارس ١٩٦٤.

٥ ـ الذكرى القاتلة:

مجلّة «هنا لندن»، العدد ٣٠٧، أيّار ١٩٧٤.

٦ ـ النصر الغالي:

مجلّة «المعلّم العربي»، وزارة التربية ـ دمشق، تشرين الأوّل ١٩٧٦.

٧ ـ ما وراء الأشياء الجميلة:

مجلّة «الموقف الأدبي»، دمشق، اتّحاد الكتّاب العرب، العدد ٩٤، شباط ١٩٧٩.

الفهرس

أعمال الأديبة

إلفة عمر باشا الإدلبي

أوّلًا: القصص والرّوايات

١. قصص شاميّة:

الطبعة ١، دمشق، دار اليقظة العربيّة، ١٩٥٤

ط ٢، دمشق، دار طلاس للدّراسات والتّرجمة والنّشر، ١٩٩٢

٢. وداعًا يا دمشق، قصص:

ط ١، دمشق، وزارة الثّقافة، ١٩٦٣

ط ٢، دمشق، دار طلاس للدّراسات والتّرجمة والنّشر، ١٩٩٢

٣. ويضحك الشيطان، وقصص أخرى:

ط ١، دمشق، مكتبة أطلس، ١٩٧٠

ط [٢]، دمشق، دار طلاس للدّراسات والتّرجمة والنّشر، ١٩٩١

٤. عصافير الدمع، قصص:

ط ١، دمشق، اتّحاد الكتّاب العرب، ١٩٧٦

ط ٢، دمشق، دار طلاس للدّراسات والتّرجمة والنّشر، ١٩٩١

٥. حكاية جدّي، رواية*:

ط ١، دمشق، ١٩٩٠

ط ٢، دمشق، دار طلاس للدّراسات والتّرجمة والنّشر، ١٩٩١

٦. دمشق يا بسمة الحزن، رواية*:

ط ١، دمشق، وزارة الثّقافة، ١٩٨٠

ط ٢، دمشق، دار طلاس للدّراسات والتّرجمة والنّشر، ١٩٩٠

ط ٣، دمشق، دار طلاس للدّراسات والتّرجمة والنّشر، ١٩٩٥

٧. ما وراء الأشياء الجميلة، قصص:

ط ١، دمشق، إشبيلية للدّراسات والنّشر والتّوزيع، ١٩٩٦

* تُرجمت رواية «حكاية جدّي» إلى اللغة الرّوسيّة من قبل فصيح بدرخان.

وتُرجمت رواية «دمشق يا بسمة الحزن» إلى الإنكليزيّة من قبل «بيتر كلارك» مدير المركز الثّقافي البريطاني بدمشق، وتُعاد طباعتها الآن في الولايات المتّحدة الأمريكيّة في طبعتين شعبيّة وفاخرة.

وكانت قد سبقت ترجمةُ عددٍ من قصص الأستاذة إلفة إلى سبع عشرة لغةً شرقيّةً وغربيّة.

ثانيًا: مقالات ومحاضرات

٨. المنوليا في دمشق، وأحاديث أخرىٰ:
ط ١، دمشق، ١٩٦٤
ط ٢، دمشق، ١٩٩١

٩. نظرة في أدبنا الشّعبي، دراسات:
ط ١، دمشق، اتّحاد الكتّاب العرب، ١٩٧٤
ط ٢، دمشق، دار الشّادي للنّشر والتّوزيع، ١٩٩٢

١٠. نفحات دمشقيّة، ومحاضرات أخرىٰ:
ط ١، دمشق، دار سامي الدروبي للنّشر، ١٩٩٠

١١. وداع الأحبّة، رثاءات:
ط ١، دمشق، ١٩٩٢

١٢. عادات وتقاليد الحارات الدمشقيّة القديمة، محاضرات ومقالات:
ط ١، دمشق، إشبيلية للدّراسات والنّشر والتّوزيع، ١٩٩٦

ما وراء الأشياء الجميلة وقصص أخرىٰ
/ إلفة الإدلبي . ـ ط ١ . ـ
دمشق : إشبيلية للدّراسات والنّشر والتّوزيع ، ١٩٩٦ . ـ
١١٢ ص ؛ ٢٠ سم .

١ ـ ٨١٣,٠١ إ د ل م   ٢ ـ ٨١٣,٠٠٩٥٦١ إ د ل م
٣ ـ العنوان   ٤ ـ الإدلبي
مكتبة الأسد الوطنيّة

الإيداع القانوني : ١٠٩ / ١ ـ ١٩٩٦

إشبيلية : تنفيذ ١١ (ط ١) ـ ١٠٠٠ / ٢ ـ ١٩٩٦

صناعة الكتاب
بدمشق

التّحضير الطّباعي والطّباعة ، دار الشّام :

☎ ٢٢٢ ٧ ٩٩٢

التّجليد ، مؤسّسة السّفراء :

☎ ٣٣١ ٦ ٢٠٥

تمّ إخراج هٰذا الكتاب في دار إشبيلية بدمشق علىٰ برنامج
العربي للنشر



هذا الكتاب

وأجملُ ما في قصص **إلفة الإدلبي، عفويّتُها** فيما ترويه لك من الحوادث، حتّى لتخالها تُحدِّثك حديثًا شخصيًّا، وأنتَ - في إصغائك إليها مُحدِّثةً - تخالها تحكي لك قصّةً مما خطّه يراعُها... وما ذٰلك إلّا لصُدورها في أدبها عن **طبعٍ أصيلٍ وبديهةٍ صافية.**

وإنك لترىٰ أديبتَنا الكبيرة - التي تُرجمت بعضُ قصصها إلىٰ سبع عشرة لغةً - معنيّةً **بالمرأة** بطلةً لكلّ قصّةٍ من قصصها، تُعالج - بوعي غيرِ مشوبٍ بالتحيُّز - ما تُعانيه من **أشواق الحياة:** أشواق الفتاة إلىٰ الزواج، وأشواق الزوجة إلىٰ الإنجاب، وأشواق المرأة المهمَلة إلىٰ الحبّ، وربما رَصَدَت حالةَ العشيقة التي ضيّعت الحاضر والمستقبل جميعًا... فإنْ تراءىٰ لها أن تُجاوز ذٰلك إلىٰ عوالم أخرىٰ، فإنها تُزاوج ما بين عالَمَيْن: فالقصّة الوطنيّة، مثلًا، مرصودةٌ عندها **من خلال مشاعر المرأة:** جزع الأمّ لقصف العدوّ عمارةً تضمّ طفلتها الوحيدة، وحزن فتاةٍ سوريّةٍ لاستشهاد شابٍّ جزائريٍّ - استهواها - يُناضل في حرب التحرير.

ومع أنّ قصص هٰذه المجموعة هي ممّا نَشرت في المجلّات العربيّة **خلال عقدَي الستّينات والسبعينات،** فإنّ ما يظهر فيها من فنٍّ وأصالة، يشهد بأنّ **إلفة الإدلبي قد وُلدت، منذ شبابها، قاصّةً يُشار إليها بالبَنان.**

فاضل السّباعي